بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنبياء (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة الأنبياء -عليهم السلام-، وهي مكية.

روى البخاري عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: "بنو إسرائيل والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادي"[١].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مّن ذِكْرٍ مّن رّبّهِمْ مّحْدَثٍ إِلاّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرّواْ النّجْوَى الّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلاّ بَشَرٌ مّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * قَالَ رَبّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السّمِيعُ الْعَلِيمُ * بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوّلُونَ * مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ} [سورة الأنبياء:١-٦].

هذا تنبيه من الله -عز وجل- على اقتراب الساعة ودنوها، وأن الناس في غفلة عنها، أي لا يعملون لها ولا يستعدون من أجلها.

وروى النسائي عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: {فِي غَفْلَةٍ مّعْرِضُونَ} قال: ((في الدنيا))[٢]، وقال تعالى: {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ} [سورة النحل:١]، وقال: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا} [سورة القمر:١-٢] الآية.

ثم أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار، فقال: {مَا يَأْتِيهِمْ مّن ذِكْرٍ مّن رّبّهِمْ مّحْدَثٍ} أي: جديد إنزاله {إِلاّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ}، كما قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: ما لكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرءونه محضاً لم يُشب[٣]. رواه البخاري بنحوه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فكلام ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- حينما قال: "**بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول، وهن من تلادي**"، هن من العتاق الأول، العتاق: جمع عتيقة، أو عتيق، والشاهد منه أن هذه من السور المكية، وأنها مما أخذه قديماً وتلقاه عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

---

١ - رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، برقم (٤٩٩٤).

٢ - رواه النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٢٦٩).

٣ - رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء))، برقم (٧٣٦٣).

وهذه السورة مكية بالإجماع كما نقله بعض أهل العلم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ} قال: "**أي جديد إنزاله**"، بمعنى أن الله -تبارك وتعالى- تكلم به ونزل به جبريل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وسمعه هؤلاء الناس، وتلقوه عن رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، وذلك يدل دلالة واضحة على أن الله -تبارك وتعالى- يتكلم متى شاء كيف شاء، كما هي عقيدة أهل السنة والجماعة، وليس معنى {مُّحْدَثٍ} أنه مخلوق، فالقرآن كلام الله، وكلامه صفة من صفاته، {فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} [سورة التوبة:٦]، وصفاته غير مخلوقة، فالقول في الصفات كالقول في الذات، وإنما المقصود بالمحدث يعني أنه نزل حديثاً، فالله -تبارك وتعالى- كما هو معلوم- لم ينزل القرآن جملة واحدة، وجبريل -عليه الصلاة والسلام- كما في الحديث الذي يدل على هذا المعنى في تكلم الله بالوحي حينما يصعق أهل السماوات، ويكون أول من يفيق جبريل فيكلمه الله من وحيه بما شاء، فهذا كله يدل على أن جبريل يسمع من الله مباشرة وينزل به، وهذا لا ينافي كون القرآن في اللوح المحفوظ كما قال الله -عز وجل-: {فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ} [سورة البروج:٢٢]، وأنه في صحف بأيدي الملائكة، {فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ} [سورة عبس:١٣-١٥]، وأيضاً هو في بيت العزة في سماء الدنيا، فهذا كله يدل على مزيد عناية الله -عز وجل- بهذا الكتاب، لكن جبريل -عليه الصلاة والسلام- يتلقاه عن الله مباشرة، وهذا الذي عليه أهل السنة، فلا يجوز لأحد أن يحيد عن هذا المعتقد أو يعتقد سواه، فهو عقيدة السلف الصالح -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

وأما قول ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- فالشاهد فيه هو قوله: "**وكتابكم أحدث الكتب**" هذا هو الشاهد، أورده من أجل هذا "أحدث الكتب"، وجاء عن الزهري -رحمه الله-: أحدث آية بالعرش آية الدين.

وقوله: {وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ} أي: قائلين فيما بينهم خُفية: {هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ} يعنون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يستبعدون كونه نبياً لأنه بشر مثلهم، فكيف اختص بالوحي دونهم؟.

النجوى كما هو معلوم لا تكون إلا بالسر؛ لأن النجوى هي الحديث الذي يكون بين اثنين فأكثر مما يقصد به الانفراد عن الناس، هذه النجوى، فالله -عز وجل- يقول: {وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى} مع أن النجوى لا تكون إلا سراً، فهذا يدل على أنهم بالغوا في إخفائها، {وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى} أي أخفوا النجوى.

وقد يتناجى أناس ويعلم أنهم يتناجون لكن لا يعرف مضمون النجوى، فكأن هؤلاء لشدة مبالغتهم في الإخفاء أخفوا النجوى نفسها، {وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى}، مبالغة ولم يكتفوا بالتناجي بينهم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ ظَلَمُواْ} فيها أقوال كثيرة للمفسرين من جهة الإعراب، ومعلوم أن الإعراب تحت المعنى، فيتغير الإعراب بحسب اعتبارات المعاني، كما أن لك أن تقول أيضاً: إن المعنى تحت الإعراب، فقوله: {وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ}، بعضهم يقول: إن قوله: {وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى} معناها أظهروا النجوى؛ لأن كلمة أسر هذه من الأضداد تأتي بمعنى أخفى، وتأتي بمعنى أظهر، ولكن هذا قد لا يدل عليه السياق، {وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ} بعضهم يقول: هذا محل نصب، أعني {الَّذِينَ ظَلَمُواْ}، وبعضهم يقول: هو بدل من الواو في قوله: {وَأَسَرُّواْ} فهم أسروا النجوى، فيكون بدل بعض من كل، {وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ}، فالذين أسروا النجوى هم الذين ظلموا، وبعضهم يقول غير هذا، والشيخ محمد الأمين

الشنقيطي -رحمه الله- يرجح هذا القول بأن {الَّذِينَ ظَلَمُواْ} بدل من الواو في قوله: {وَأَسَرُّواْ}، وهذا من أوضح الأوجه، {وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ} أي: قائلين فيما بينهم: {هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ}، {هَلْ هَذَا}، هذه الجملة أيضاً يحتمل أن تكون بدلاً من النجوى، {وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ} ومضمون هذه النجوى، قالوا فيها: {هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ} فيكون بدلاً من النجوى، يعني أسروا قولهم: {هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ}. ويحتمل غير هذا، يمكن أن يكون معمولاً لقول محذوف، {وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ} قالوا: {هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ}، وحذْفُ القول كثير في القرآن، والعرب تحذف من الكلام ما تستغني عنه ثقة بفهم السامع أو المخاطب، من باب الاختصار، وعلى كل حال يحتمل هذا وهذا، والله أعلم.

{وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ} قالوا: {هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ}، يعنون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يستبعدون كونه نبياً لأنه بشر مثلهم، فكيف اختص بالوحي دونهم؟، وهذا كالآيات التي سبقت في مناسبات شتى {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً} [سورة الإسراء:٩٤]، وهكذا في قوله: {فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ} [سورة التغابن:٦]، و {أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ} [سورة المؤمنون:٤٧] وغير ذلك من الآيات.

ولهذا قال: {أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ} أي: أفتتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر وهو يعلم أنه سحر؟، فقال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب: {قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} أي: الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية، وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إلا الذي يعلم السر في السموات والأرض.

وقوله: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} أي: السميع لأقوالكم والعليم بأحوالكم، وفي هذا تهديد لهم ووعيد.

كذلك في قوله: {قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ}، وفي القراءة الأخرى المتواترة {قل رب يعلم}، ومعنى ذلك -والله تعالى أعلم- أنه قال لهم مجيباً: {رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} يعني: هذا الذي قلتوه، وهذا الذي تناجيتم به، وهذا التكذيب الذي صدر منكم، وهكذا ما أنسبه إلى الله وأضيفه إليه من أنه كلامه كل ذلك الله -تبارك وتعالى- يعلمه، ولا يخفى عليه من قيل القائلين قليل ولا كثير.

وقوله: {بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ} هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم واختلافهم فيما يصفون به القرآن، وحيرتهم فيه وضلالهم عنه، فتارة يجعلونه سحراً، وتارة يجعلونه شعراً، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه مفترى، كما قال: {انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً} [سورة الإسراء:٤٨، وسورة الفرقان:٩].

قوله: {بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ} وأضغاث الأحلام بمعنى الأخلاط، وبعض السلف يعبر عن هذا بأنها الأحلام التي لا تُعبَّر، هو يقصد بها هذا المعنى، فالتي لا تعبر هي الأخلاط، كما في قوله: {قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ}[سورة يوسف:٤٤]، والتي تفسر هي الرؤى، فالشاهد أنهم قالوا: إن هذا القرآن هو أضغاث أحلام ثم قالوا: {بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ} [سورة الأنبياء:٥]، فبعض أهل العلم يقول: إن "بل" هذه للإضراب الانتقالي، وليست للإضراب الإبطالي، يعني لم يقصدوا بها نفي ما قبله حينما انتقلوا إلى غيره، وإنما هم يتخبطون كما قال بعض أهل العلم: إن ذلك صدر من هؤلاء المشركين بمجموعهم، فتارة يقولون:

أضغاث أحلام، وتارة يقولون: شعر، أو شاعر، وتارة يقولون: كاهن، وتارة يقولون: ساحر، فاضطربت أقوالهم فيه، ولم يتفقوا على شيء، كما قال الله -عز وجل-: {انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا} [سورة الفرقان:٩]، ومن أهل العلم من يقول: إن ذلك قد تفرق فيهم، بمعنى أن هؤلاء المشركين طوائف، منهم من قال: إنه ساحر، ومنهم من قال: إنه شاعر، ومنهم من قال: إنه كاهن، ومنهم من قال: إنه أضغاث أحلام، والله -عز وجل- نفى هذا فقال: {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [سورة الحاقة:٤١-٤٢].

وقوله: {فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ} يعنون ناقة صالح وآيات موسى وعيسى -عليهم السلام- وقد قال الله: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ} [سورة الإسراء:٥٩] الآية؛ ولهذا قال تعالى: {مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ} أي: ما آتينا قرية من القرى التي بعث فيها الرسل آية على يدي نبيها فآمنوا بها بل كذبوا فأهلكناهم بذلك، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟ كلا، بل {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [سورة يونس:٩٦-٩٧] هذا كله وقد شاهدوا من الآيات الباهرات والحجج القاطعات والدلائل البينات على يدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما هو أظهر وأجلى وأبهر وأقطع وأقهر مما شوهد مع غيره من الأنبياء، -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

هذا كقوله تعالى: {وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [سورة الأنعام:١٠٩-١١٠] إلى آخر ما ذكر الله -عز وجل-، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَلَوْ أَنَّنَا نزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ} [سورة الأنعام:١١١]، فهؤلاء لا يؤمنون، وقد رأوا القمر ينشق فقالوا: سحرنا محمد، وهذه آية واضحة.

{وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاّ رِجَالاً نّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاّ يَأْكُلُونَ الطّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَالِدِينَ * ثُمّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ} [سورة الأنبياء:٧-٩].

يقول تعالى راداً على من أنكر بعثة الرسل من البشر: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاّ رِجَالاً نّوحِي إِلَيْهِمْ} أي: جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر لم يكن فيهم أحد من الملائكة، كما قال في الآية الأخرى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} [سورة النحل:٤٣] وقال تعالى: {قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ} [سورة الأحقاف:٩]، وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم؛ لأنهم أنكروا ذلك فقالوا: {أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا} [سورة التغابن:٦]، ولهذا قال تعالى: {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} أي: اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة؟ وإنما كانوا بشراً، وذلك من تمام نعمة الله على خلقه إذ بعث فيهم رسلاً منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ}، هذا يحتج به أهل العلم على أن الرسل الذين جاءوا إلى الناس كانوا من الرجال، ولم يوجد فيهم أحد من النساء، لا يوجد امرأة أرسلها الله -عز وجل.

قال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً}، والله -عز وجل- ذكر هذا كثيراً في القرآن، تكذيب هؤلاء الكفار بحجة أنه {أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً} [سورة الإسراء:٩٤]، يستبعدون هذا، ويطلبون ملائكة يرسلهم الله -تبارك وتعالى- إليهم بوحيه، والله -عز وجل- يقول: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ} [سورة الرعد:٣٨]، فهؤلاء لهم أزواج وذرية، ويمشون في الأسواق، ويأكلون ويشربون، فهؤلاء كانوا يستبعدون غاية الاستبعاد أن يكون البشر رسولاً.

وقوله -تبارك وتعالى-: {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} يقول: اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى أو سائر الطوائف، وقوله: {أَهْلَ الذِّكْرِ} العلماء عادة يقولون: يعني أهل الكتاب، اليهود والنصارى باعتبار أنهم الذين نزلت عليهم الكتب ممن يمكن سؤالهم في وقت النبي -صلى الله عليه وسلم-، أما غير اليهود والنصارى فلا وجود لهم، قوم هود وقوم صالح، لكن الذين بقوا هم أهل الكتاب، {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ} هذا هو المقصود به، وهذه الآية يحتج بها أهل العلم كثيراً على الرجوع لأهل العلم وسؤالهم واستفتائهم، {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}، السياق كما هو ظاهر المقصود به في هذا المقام أن يسألوا أهل الكتاب عمن أرسل إليهم هل كانوا من الملائكة أو كانوا من البشر، فهي وإن كانت في هذا المعنى إلا أنه يمكن أن يؤخذ من عمومها -عموم اللفظ- أن يرجع إلى أهل المعرفة في كل شأن، ويتلقى ذلك العرفان منهم، يرجع إلى أهل الاختصاص، ففي المسائل الشرعية يرجع إلى أهل العلم ويستفتون، وهكذا يمكن أن يؤخذ بعموم الآية يقال: حتى في الصناعات ونحو ذلك لو قال قائل: {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ} أنه في الطب نرجع إلى أهل الاختصاص، المتخصص بهذا الفن بهذا الجانب من الطب هو الذي يسأل عن هذا الأمر، وهكذا في الأدوية ونحو هذا يسأل الصيدلي، ويؤخذ ذلك عنه، ولا يسأل الجهال الذين لا معرفة لهم بهذا.

وقوله: {وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ} أي: بل قد كانوا أجساداً يأكلون الطعام كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ} [سورة الفرقان:٢٠] أي: قد كانوا بشراً من البشر يأكلون ويشربون مثل الناس، ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بضار لهم ولا ناقص منهم شيئاً، كما توهمه المشركون في قولهم: {مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا} [سورة الفرقان:٧-٨] الآية.

هذا التركيب في قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ} النفي هنا معناه ما جعلهم جسداً متصفاً بهذه الصفة، هم أجساد فالنفي هنا بهذا القيد، ليس النفي أن يكونوا من ذوي الأجساد، وإنما النفي نفى {وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً} من صفته كذا، هم جسد لكن النفي مسلط على هذا المذكور بالقيد الذي بعده، والجسد هنا مفرد {وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً} أي: ذوي أجساد، والله -عز وجل- جعلهم ذوي أجساد، لكن لم يجعلهم جسداً متصفاً بهذه الصفة أنه لا يطعم، لا يأكل الطعام، وإنما جعلهم جسداً يأكلون الطعام، {وَمَا

جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ}، فهم يريدون أن يكونوا ملائكة، فالله -عز وجل- يقول: أولئك الرسل -عليهم الصلاة والسلام- كانوا يأكلون ويشربون، وقال عن عيسى -صلى الله عليه وسلم- وأمه: **{كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ}** [سورة المائدة:٧٥]، فهذه طبيعة البشر، ولو أرسل الله -عز وجل- إليهم ملائكة فإنهم لا يتمكنون من الأخذ والتلقي عنهم، وسيعتذرون بذلك، أي بأن هؤلاء الملائكة لا يصلحون للاقتداء؛ لأن الله أعطاهم من الإمكانات والقُدَر إضافة إلى أنه لا توجد فيهم نوازع الشهوات، وما ركبت الأهواء في نفوسهم، فالله أرسل إليهم بشراً يأخذون عنهم ويفهمون عنهم، ويشاكلونهم في أحوالهم، بل أكثر من هذا أن الله -تبارك وتعالى- بعث لهؤلاء الأميين رسولاً منهم، ليكون ذلك أدعى للأخذ عنه، وأقرب إلى أحوالهم، ويفهمون عنه، الأميون لو جاءهم فيلسوف فإنهم لا يتمكنون من فهمه والأخذ عنه، فالفيلسوف إذا تكلم لا تدري ماذا يقول، لا تفهم عنه شيئاً، ولهذا يقال: إذا أردت أن تقتل الفيلسوف فضعه بين العوام، يتكلم بأشياء، العوام يقولون: هذا مجنون، وهو عند نفسه أعلى شيء.

وقوله: {وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ} أي: في الدنيا، بل كانوا يعيشون ثم يموتون، {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ} وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله -عز وجل-، تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكمه في خلقه مما يأمر به وينهى عنه، وقوله: {ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ} أي: الذي وعدهم ربهم ليهلكن الظالمين، صدقهم الله وعده وفعل ذلك؛ ولهذا قال: {فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ} أي: أتباعهم من المؤمنين، {وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ} أي: المكذبين بما جاءت به الرسل.

هذا كقوله -تبارك وتعالى-: **{حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا}** [سورة يوسف:١١٠]، وفي القراءة الأخرى **{وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُواْ}**، وهكذا في الآيات الأخرى الدالة على هذا المعنى وهي كثيرة، **{فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ}** [سورة إبراهيم:٤٧] والله -عز وجل- كما قال لعيسى -صلى الله عليه وسلم-: **{وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}** [سورة آل عمران:٥٥]، **قال: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ }** [سورة إبراهيم:١٣-١٤].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنبياء(٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّواْ بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لاَ تَرْكُضُواْ وَارْجِعُوَاْ إِلَىَ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُواْ يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىَ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ} [سورة الأنبياء:١٠-١٥].

يقول تعالى منبهاً على شرف القرآن ومحرضاً لهم على معرفة قدره: {لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: شرفكم.

{أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} أي: هذه النعمة، وتتلقونها بالقبول، كما قال تعالى: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} [سورة الزخرف:٤٤].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}، يقول: "**قال ابن عباس: أي شرفكم**".

والذكر يأتي بمعنى الشرف، تقول: فلان له ذكر بمعنى له شرف، ولا شك أن إنزال هذا القرآن على هذه الأمة على يد هذا النبي الأمي -عليه الصلاة والسلام- شرف عظيم، حيث نزل بلسانهم، وعلى يد رجل منهم، {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ} [سورة الجمعة:٢]، فهذا رفع من مكانهم ومنزلتهم وجعلهم في مقام الصدارة بين سائر الأمم، وإذا تمسكوا بهذا الكتاب وآمنوا به واتبعوا ما فيه حصلت لهم الرفعة في الدنيا والآخرة، وهذا المعنى الذي نقله المؤلف -رحمه الله- عن ابن عباس هو الذي اختاره كبير المفسرين أبوجعفر بن جرير -رحمه الله تعالى-، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ} [سورة الزخرف:٤٤]، من أهل العلم من فسره بهذا أي: شرف لك ولقومك، وبعضهم يقول: إن قوله: {فِيهِ ذِكْرُكُمْ} أي: حديثكم، وبعضهم يقول: أي ذكر الحلال والحرام، وذكر أمر دينكم وشرعكم، وبعضهم يقول: أي بمعنى الموعظة، أي فيه موعظتكم، والموعظة يقال لها: ذكر، وما يحصل به التذكر يقال له: ذكر، فهذا القرآن ذكر يحصل به التذكر، والاتعاظ، والاعتبار، ويمكن أن تجتمع هذه المعاني -والله تعالى أعلم-، فإن هذا القرآن لا شك أنه شرف لهذه الأمة إن اتبعوه وتمسكوا به، وهو متضمن لما فيه التذكير، وقد حوى ألوان المواعظ، صرف الله -عز وجل- فيه العبر والأمثال، وضمنه ما تحصل به الهداية والسعادة والفلاح في الدنيا والآخرة.

ومثل هذا الاختصار -حينما يقتصر على إيراد هذا القول عن ابن عباس- قد يفهم منه أن المؤلف يختار هذا، والواقع أنه ليس كذلك، فمثل هذا في الاختصار لو كان بطريقة أخرى لكان أحسن، والله أعلم.

وقوله: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً} هذه صيغة تكثير، كما قال: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ} [سورة الإسراء:١٧]، وقال تعالى: {فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} [سورة الحج:٤٥] الآية.

صيغة التكثير في قوله: {وَكَمْ} أي: هي كثير تلك القرى التي قصمناها وهي ظالمة، وأصل القصم في كلام العرب يأتي بمعنى كسر الشيء ودقه، تقول: قصم الله ظهره، والفصم يأتي بهذا المعنى ولكنه دونه، يعني إذا كان القصم من غير إبانة فإنه يقال له: فصم، فإذا كان أقوى وأشد وحصل معه الإبانة يقال له: قصم، {وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً} وهذا للتكثير، ولا حاجة لحمله على قرية بعينها، كما جاء في بعض الأخبار التي تُلقيت عن بني إسرائيل أنها قرية معينة من أرض اليمن، ويذكرون في هذا بعض الأخبار، لا حاجة إلى هذا، وما ذكره الله -تبارك وتعالى- بعده من قوله: {فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لاَ تَرْكُضُواْ وَارْجِعُواْ}، لا يعني أن هذا يختص بقرية بعينها؛ لأن "كم" التي للتكثير تدل على أن هذا وقع كثيراً وتكرر، وأن هذا الذي حدث من أنهم يركضون، وقوله: {لاَ تَرْكُضُواْ} إلى آخره، لا يعني أن هذا وقع لأناس معينين، كما ورد أن هؤلاء الناس سمعوا صائحاً يقول: ارجعوا إلى مساكنكم، فرجعوا إلى مساكنهم، فسمعوا منادياً أيضاً يقول: يا لثارات نبي الله، يعني النبي الذي أساءوا إليه، وهذا لا حاجة إليه؛ لأن "كم" تدل على التكثير، فهذا أمر كثر وقوعه فلا يختص بقرية معينة، وهذا الذي يدل عليه ظاهر القرآن، والله تعالى أعلم.

وقوله {وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ} أي: أمة أخرى بعدهم، {فَلَمَّا أَحَسُّواْ بَأْسَنَا} أي: تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبيهم، {إِذَا هُمْ مِّنْهَا يَرْكُضُونَ} أي: يفرون هاربين، {لاَ تَرْكُضُواْ وَارْجِعُواْ إِلَىَ مَا أُتْرِفْتُمْ}.

وقال في قوله: {فَلَمَّا أَحَسُّواْ بَأْسَنَا} "**أي تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبيهم**"، وبعض المفسرين يقول: فلما عاينوا بأسنا، عاينوا العذاب، وهذا لا يتنافى مع هذا القول أنهم أيقنوا، لمّا رأوه، وعاينوه، وإلا قبل ذلك كانوا يقولون: {ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا} [سورة الأعراف:٧٧]، فهم لم يصدقوا خبره، ولا منافاة بين القولين، وبعضهم كالأخفش يقول: {فَلَمَّا أَحَسُّواْ بَأْسَنَا} أي: توقعوا عذابنا، والأمر -والله أعلم- فوق هذا، فهو ليس مجرد توقع وإنما أيقنوا وعرفوا بما عاينوا وشاهدوا، عند ذلك حصل منهم هذا الذي ذكره الله -تبارك وتعالى-، {فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ} وليس بمجرد التوقع.

طبعاً، يقول: {إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ} الركض أصله: ركَضَ الفرسّ، أي أنه -كما هو معلوم- إذا حرك رجليه، فضربه بهما، كما يفعل راكب الدابة، هذا أصله، ثم بعد ذلك قيل للجري، فصارت العرب تعبر تعبيراً أوسع من هذا، ولو لم يفعل ذلك برجله بل لو أطلق الفرس وحده، يقال: ركضَ الفرسَ أي أجراه، وصار يقال لمن يجري ولو لم يكن راكباً يقال: ركض، يركض، ولكن أصله ركضه برجله بمعنى أنه يحرك رجليه كما يفعل راكب الدابة، هذا يقال له: ركضه برجله، ركض الدابة برجله، ما يقال: ركضها برجله، وإن كان يصح التعبير بهذا، لكن يقال: ركض الدابة، بمعنى أنه برجله جعل يحرك رجليه، يضربها برجليه في جنبيها من أجل أن تسرع، هذا الأصل، ثم صار يقال لكل جري، كما يقال في اليمين: أصلها مع الحلف الأخذ باليمين،

تأكيداً للقول بالفعل، ثم صار ذلك يقال لكل حلف، وهكذا في عدد من الأشياء في كلام العرب كان لها أصل معين، ثم بعد ذلك توسعوا في التعبير عنها.

{لاَ تَرْكُضُواْ وَارْجِعُواْ إِلَىَ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ} هذا تهكم بهم نزراً، أي قيل لهم نزراً لا تركضوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة. قال قتادة: استهزاء بهم.

طبعاً هذا على أساس أنه استهزاء، لكن على ما ذكرت قبل قليل مما يذكره بعض المفسرين، وفسروا الآية بهذا الاعتبار بناءً على بعض المرويات الإسرائيلية أنهم سمعوا منادياً قال لهم: {ارْجِعُواْ إِلَىَ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ} فرجعوا إلى مساكنهم، ثم سمعوا منادياً يقول: يا لثارات نبي الله، فحصل استئصالهم وإهلاكهم، لكن هذا مبناه على ما ذكرت من هذه المرويات التي لا يصح الاعتماد عليها، لكن قصدت من هذا أن من فسره بذلك فإنه لا يكون على سبيل التهكم، أيا كان المراد به، والأقرب أن هذا على سبيل التهكم -والله تعالى أعلم-، كقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**أي قيل لهم نزراً لا تركضوا هاربين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور، والمعيشة، والمساكن الطيبة**"، وبعضهم يقول: ارجعوا إلى مساكنكم يعني {إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ} بعضهم يقول: لعلكم تسألون أن يرجع إليكم في المهم، تسألون كما كنتم تسألون قبل ذلك، ويرجع إليكم في المهمات، ويؤخذ رأيكم فيها، {لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ} تهكماً بهم، وبعضهم يقول: {لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ} عما رأيتم وعاينتم فتجيبوا بما شاهدتهم وما حل بكم، لكن كل ذلك لا يكون، فإن العذاب يأخذهم ويستأصلهم ولا مجال إلى الرجوع إلى مساكنهم، لكن هؤلاء يقولون: إن ذلك وقع على سبيل التهكم بهم، أين تذهبون، رأيتم العذاب، ارجعوا إلى مساكنكم لعلكم تسألون عما شاهدتم، وتخبرون الناس بما حل بكم، على سبيل التهكم بهم، وبعضهم يقول: {لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ} أي: كما كنتم تسألون قبل ذلك، يعني ارجعوا إلى مساكنكم لعلكم تسألون، أي يطلب منكم الإيمان كما كان يطلب منكم قبل نزول العذاب، على سبيل الاستهزاء.

{لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ} أي: عما كنتم فيه من أداء شكر النعم، {قَالُواْ يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك، {فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىَ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ} أي: ما زالت تلك المقالة، وهي الاعتراف بالظلم هجِّيراهم حتى حصدناهم حصداً، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً.

قوله: {جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ} كما يقال للإنسان إذا مات: خمد، ويقال: برد، بمعنى صار جثة هامدة لا حراك فيها، فارقت أرواحهم أجسادهم فلم يعد بهم حراك.

{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ * وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ} [سورة الأنبياء:١٦-٢٠].

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق، أي بالعدل والقسط، {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى} [سورة النجم:٣١]، وأنه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً كما قال: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}[سورة ص:٢٧].

وقوله تعالى: {لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ}، قال ابن أبي نجيح عن مجاهد: {لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا} يعني: من عندنا، يقول: وما خلقنا جنة ولا ناراً ولا موتاً ولا بعثاً ولا حساباً.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ} فالله -تبارك وتعالى- خلق ذلك لغاية وحكمة عظيمة، ولم يكن ذلك للتلهي أومن غير حكمة أوجد الخلق من أجلها، فالله إنما خلق هذه الأكوان، والمخلوقات، والجنة والنار، كل ذلك بالحق، وقوله -تبارك وتعالى-: {لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا}، اللهو بعضهم فسره بالولد، قالوا: هذه الآية رد على الذين نسبوا إلى الله -عز وجل- الولد، وبعضهم فسره بالزوجة؛ لأنه يُتلهى بها، يقولون: هذا رد على الذين نسبوا له الصاحبة، وبعضهم يحمل المعنى على ما هو أعم من ذلك، يقول: اللهو كل ما يتلهى به، ويدخل فيه اللعب، والله -عز وجل- وصف الحياة الدنيا بأنها لعب ولهو، فكل ما يتلهى به فهو لهوٌ، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا}، فاللهو يدخل فيه ما يتلهى به، ويذكر بعض أهل العلم الفروقات بين اللهو واللعب، فكل ما يتلهى به فهو لهو، وكل لعب فهو لهو، واللهو منه ما هو باطل، ومنه ما يكون حقاً، وبعض أهل العلم يقول: إن اللعب هو ما يأنس به الإنسان في أوله ويقبل عليه من أجل أن يأنس به ونحو ذلك، واللهو أوسع من ذلك، قد لا يحصل به الاستئناس كالذي ينشغل في الدنيا، ولو كان يشقى بها ويتعب، ينشغل بدنياه عن الآخرة، فهذا مشتغل باللهو، وهكذا إذا اشتغل بشيء يصرفه ويشغله عن الله -عز وجل-، ولو لم يكن فيه راحة وأنس، أما اللعب فإنه إقبال على شيء يستهويه، لكن دون أن ينتفع بذلك ويخرج منه بما يرفعه، ويحصل له به الأجر والثواب ونحو ذلك، فاللعب من اللهو، واللهو أوسع من هذا.

يقول: {لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا} قال: "**أي من عندنا**"، من عندنا يعني من جهة قدرتنا لا من عندكم، كما يعبر بعض أهل العلم، وابن القيم -رحمه الله- عبر بعبارة أخص من هذا فيقول: أي من الجوهر الأعلى السماوي الموصوف بالخلوص والنقاء، لا من جوهر هذا العالم الأرضي الذي ركب هذا التركيب الذي يخالطه ويمازجه الأدناس والفناء، ومثل هذه المواضع قد لا يتجاسر الإنسان فيها على بعض العبارات، وإنما يعبر بعبارة مجملة كما قال مجاهد، وبعضهم قال: {لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً} أي: من الحور العين، والدخول في مثل هذه التفصيلات قد يكون الأحسن منه ما ذكره مجاهد، وبعضهم قال: {لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً} إنه لهو الجماع، ففسروا اللهو بالجماع، ومثل هذا لا حاجة إليه، والله أعلم.

وقوله: {إِن كُنَّا فَاعِلِينَ} قال قتادة والسدي وإبراهيم النخعي ومغيرة بن مقسم: أي ما كنا فاعلين، وقال مجاهد: كل شيء في القرآن "إنْ" فهو إنكار.

هذا الذي يسمونه بالكليات، كل شيء في القرآن كذا فهو كذا، مثل كل الريح في القرآن فهو العذاب، وأحياناً يستثنون، يقول لك: إلا في قوله: {بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ} [سورة يونس:٢٢].

كل شيء في القرآن القتل فهو اللعن مثلاً إلا كذا، لكن هذا يحتاج إلى استقراء، هل هي في كل المواضع فعلاً كذلك أو لا، وهذا يسمونه بالكليات في التفسير، والكليات تأتي بمعنيين، تأتي بمعنى ما يقابل الجزئيات،

فالقضايا الكلية كالتوحيد، وقضايا الأخلاق، أصول الأخلاق، وما أشبه ذلك يقال لها: الكليات، مثلما يقال: الكليات الخمس: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ النسل والعرض، وحفظ العقل، وحفظ المال، يقال لها: كليات، ويقال: الكليات لما كان من هذا الشأن، كل كذا فهو كذا، هذا غير هذا، ولذلك تجد أحياناً في بعض الكتب التي تعنى بالكليات، في بعضها المقصود هذا: كل كذا فهو كذا، والقواعد يقال لها: كليات، ولو لم تكن مبدوءة بكل؛ لأنها تنتظم الجزئيات الكثيرة، فالقاعدة قضية كلية وليست جزئية، فالقواعد كليات، وتارة يراد بالكليات المعنى الآخر: أي هي أصول الدين الكبار، ودعائمه العظام، وما أشبه هذا.

وقوله هنا: "**كل شيء في القرآن "إن" فهو إنكار**"، فقوله: {إِن كُنَّا فَاعِلِينَ} أي: ما كنا فاعلين، وتأتي مخففة من الثقيلة أحياناً، وتأتي شرطية، ومن أهل العلم من قال بأنها نافية {إِن كُنَّا فَاعِلِينَ} أي: وما كنا فاعلين، {لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ}، ولم نكن فاعلين ولم نتخذ لهواً، وبعضهم يقول: بل هي شرطية، وبعضهم يُجّوز الأمرين، وقد يحتمل أن تكون شرطية ويحتمل أن تكون نافية، فإذا كانت شرطية يكون {إِن كُنَّا فَاعِلِينَ} يعني إن كنا ممن يفعل ذلك لاتخذنا من لدنا {إِن كُنَّا فَاعِلِينَ}، تكون شرطية، إن كنا ممن يتخذ لهواً لاتخذناه من عندنا، وهذا الكلام أيضاً في الآية الأخرى، وهي قوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} [سورة الزخرف:٨١]، فـ"إن" هنا شرطية، {إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ}، لكن {فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ}، فأنا أول العابدين لله، على قول جماعة كبيرة من السلف وممن بعدهم، وبعضهم يقول: {فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} لهذا الولد، لكنه غير موجود، فقال ذلك على سبيل التنزل، وعلى هذا المعنى يمكن أن يكون ذلك داخلاً تحت القاعدة، وهي: أن التعليق بالشرط لا يعني إمكان الوقوع، {إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ}، والله أعلم.

وقوله: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ} **أي: نبيّن الحق فيدحض الباطل، ولهذا قال**: {فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} **أي: ذاهب مضمحل.**

أصل الدمغ في كلام العرب الشجة التي تصل إلى الدماغ، وهي من أنواع الشجاج، فالشجاج أنواع منه ما يقال له: المأمومة: تصل إلى أم الدماغ، ومنه ما يقال له: الموضحة توضح العظم، فالدامغة: هي التي تصل إلى الدماغ، وهذه لا يعيش الإنسان معها عادة، الدامغة تصل الضربة فيها إلى الدماغ، ليس فقط العظم أو الجلد، وإنما تصل إلى الدماغ، فيقال: دمغه أي شجه على دماغه حتى وصل إلى الدماغ، يقال: هذه ضربة دامغة، يعني قاضية، فصار ذلك يستعمل فيما يحصل به إبطال الشيء بالكلية، وقال الله -تبارك وتعالى-: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ} فيزهقه: يعني يذهبه، تقول: زهقت نفسه، زهقت روحه يعني ذهبت، {فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} أي: ذاهب مضمحل باطل، وذلك بما في هذا القرآن من الحجج والبراهين، وبيان دلائل التوحيد، وبطلان ما يخالفه ويناقضه من الشبهات، والترّهات، وما يتشبث به هؤلاء من المبطلين، ممن نسبوا لله الصاحبة أو الولد، وعبدوا غيره، {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ}، يقول: {وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} مما يضيفونه إلى الله -عز وجل- من الشركاء الذين يعبدونهم، فتضمن هذا القرآن من الحجج والبراهين ما يجلي به ويبطل به كل باطل.

{وَلَكُمُ الْوَيْلُ} **أي: أيها القائلون: لله ولد،** {مِمَّا تَصِفُونَ} **أي: تقولون وتفترون.**

كل الذين يصفون ويقولون هذه الأباطيل، ويدعون أن لله ولداً أو صاحبة هذه الدعاوى الكاذبة هم داخلون في هذا، كل من جعل لله شريكاً، أو صاحبة أو ولداً، والله أعلم.

ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له، ودأبهم في طاعته ليلاً ونهاراً، فقال: {وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ} يعني: الملائكة، {لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِه} أي: لا يستنكفون عنها، كما قال: {لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلا الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً}[سورة النساء:١٧٢].

هنا قوله: {وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ} يعني: أن الله -تبارك وتعالى- هو رب كل شيء ومليكه، فكل من في السماوات والأرض فهو مخلوق لله -عز وجل- مربوب مملوك، والولد كما هو معلوم ليس كذلك، فهذا رد على هؤلاء الذين ينسبون له الشركاء والصاحبة والولد، فهذا الخلق كله كلهم عبيده وخلقه ومماليكه يتصرف فيهم كما يشاء.

يقول: {وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِه} هذه جملة أخرى، يعني الوقف هنا تام على قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} يعني ملكاً وخلقاً، ثم جاءت جملة جديدة {وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِه} وهم الملائكة، فلا يتعاظمون ولا يترفعون أو يأنفون، وأيضاً لا يستحسرون.

وقوله: {وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ} أي: لا يتعبون ولا يملون.

"**أي: لا يتعبون ولا يملون**"، بمعنى قول الله -عز وجل-: {ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ} [سورة الملك:٤]، ومعنى حسير: كليل، فهذه الكلمة تأتي بمعنى الإعياء والانقطاع أو الانقطاع بسبب الكلال والإعياء والتعب، كما يقال: حسرت الدابة، يعني انقطعت، انقطعت من طول السير، وهو الذي يعبر عنه يقال: حرنت الدابة، حرنت: يعني البعير مع طول السير في السفر يبرك، فإذا برك لا يمكن أن يقوم ولو أحرق بالنار، فيُترك، وقد يموت في مكانه؛ لأنه ما يأكل ولا يشرب، قد يكون هذا البروك لمدة طويلة، لا يتحرك أبداً من طول التعب، فإن كان صاحبه يهتم به يجلس عنده، فيعلفه، ويجمع له الحشيش، ويسقيه، ويتلطف به غاية التلطف من أجل أن تطيب نفسه وينشط فيقوم، هذا يحصل عند العرب في أسفارهم وتنقلاتهم، فمتى ما نهض هذا البعير ركبه، قد تطول المدة وقد تقصر، ولهذا كانوا غالباً ما يتركون البعير، وأحياناً قد ينحرونه ويأكلون لحمه، وأحياناً لا يتمكن أصلاً صاحبه من ذلك؛ لأن الركب لا ينتظره، فيترك، ولهذا تجدون في قول الشاعر:

بها جيف الحسرى فأما عظامها *** فبيض وأما جلدها فصليب

جيف الحسرى يعني يصف فلاة بعيدة، فتجد الإبل تنقطع فيها ويتركونها ويذهبون، فتموت وتتفسخ فتلوح عظامها.

فإذا طال المكث وماتت البهيمة يبقى الجلد قوياً جافاً يابساً، والزهومة والدهون وكل ذلك قد تحلل وتلاشى.

فقوله: {وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ} بمعنى الانقطاع والإعياء، ما يحصل لهم تعب وانقطاع عن عبادة الله -عز وجل-، فلا يحصل لهم تعاظم، لا يتركون ذلك كبراً وتعاظماً، ولا يتركونه بسبب التعب والإعياء.

{يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ} فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً، مطيعون قصداً وعملاً، قادرون عليه، كما قال تعالى: {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [سورة التحريم:٦].

{أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} [سورة الأنبياء:٢١-٢٢].

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال: {أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ} أي: أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؟، أي لا يقدرون على شيء من ذلك، فكيف جعلوها لله نداً وعبدوها معه؟ ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات والأرض، فقال: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ} أي: في السموات والأرض {لَفَسَدَتَا} كقوله تعالى: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ} [سورة المؤمنون:٩١].

قوله: {أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ} بعضهم يقول: إن "أم" هذه هي المنقطعة، وإن الهمز لإنكار الوقوع، {أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ} أي: هذه الآلهة تبعث الخلق بعد فنائهم وموتهم، وتحييهم؟، ثم قال: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} "إلا" هذه فسرها جماعة من أهل العلم بأنها بمعنى سوى، ويقولون: إنها ليست استثنائية، هذه ليس المقصود بها أنها ذات استثناء، وإنما هي بمعنى غير، {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ} غير الله لفسدتا، وهذا الذي يسميه المتكلمون بدليل التمانع، ويقولون بأنه دليل التمانع في الربوبية، يقولون: لو كان لهذا الكون صانعان متكافئان في الصفات والأفعال، لفسدت السماوات والأرض، وشيخ الإسلام وكذلك ابن القيم ناقشهم في هذا، وأن هذا الدليل إنما هو تمانع في الإلهية؛ لأنه قال: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ} ما قال: أرباباً، قال: إن الأقرب أن يكون دليل التمانع في الربوبية هو قوله: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ}.

ومما ذكره قال: إنه أولاً ذكر آلهة، والشيء الآخر: أنه قال: {لَفَسَدَتَا}، فهذا فساد بعد الوجود، فالربوبية تعني الخلق والإيجاد، بخلاف {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ} فهذا الرب هو الخالق، و{لَفَسَدَتَا} هي موجودة، من الذي أوجدها؟ {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا}، فساد بعد الوجود، فقالوا: هذا تمانع في الإلهية، وليس في الربوبية.

وقال ههنا: {فَسُبْحَانَ اللّهِ رَبّ الْعَرْشِ عَمّا يَصِفُونَ} أي: عما يقولون أن له ولداً أو شريكاً -سبحانه وتعالى- وتقدس وتنزه عن الذي يفترون ويأفكون علواً كبيراً.

وقوله: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [سورة الأنبياء:٢٣] أي: هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله وكبريائه وعلمه وحكمته وعدله ولطفه، {وَهُمْ يُسْأَلُونَ} أي: وهو سائل خلقه عما يعملون كقوله: {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة الحجر:٩٢-٩٣]، وهذا كقوله تعالى: {وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ} [سورة المؤمنون:٨٨].

سؤال:

ما هو الضابط فيما يرسله الله -تبارك وتعالى- على خلقه متى يقال له: عذاب؟

النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر عن الطاعون بأنه عذاب، كان يرسله الله -عز وجل- على من شاء من خلقه، وأنه رحمة لهذه الأمة، وهذا يدل على أنه ما كل ما يقع من المصائب العامة أو الخاصة يعني أنه عذاب، مع أن الله -عز وجل- يقول: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} [سورة الشورى:٣٠]، فالخلق مستحقون لهذا بسبب تقصيرهم وجناياتهم، وما يرسله الله -عز وجل- لهم قد يكون رحمة بهم؛ لرفع درجاتهم وتكفير سيئاتهم، ونحو هذا، فيكون رحمة بهذا الاعتبار، لينيبوا إليه، ليرجعوا إليه، وما أشبه هذا، وقد يكون عقوبة، وقد يكون عذاباً وعقوبة، ويترجح هذا أو هذا بمعرفة حال الناس، فإن كانوا أهل طاعة واستقامة وعبادة وصلاح فيقال: هذا ابتلاء {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} [سورة الأنبياء:٣٥]، فالله وعد بالابتلاء، فما يقع من القحط والمجاعة وغلاء الأسعار، فإذا كان الخلق على استقامة، وهذا كما يقال في الحال العامة، عموم الناس، وأنهم يأخذون على يد الظالم، وينهون عن المنكر، ويأمرون بالمعروف، ونحو ذلك، فيرجى أن الذي حل بهم إنما هو تكفير لسيئاتهم ورفع لدرجاتهم وابتلاء لهم، ويقلبهم الله في هذا وهذا، وإذا كان الغالب عليهم هو الفساد والشر والمحادة لله -عز وجل-، فتظهر فيهم الشرور والمنكرات ولا تغير، فهذا غالباً ما يكون عقوبة، كالذي يقع على الكفار والمحاربين لله المحادين له، فمثل هذا ما يقال: والله إن الذي وقع فيهم هو تكفير لسيئاتهم، ورفع لدرجاتهم، إنما هو عذاب نزل بهم، وهو قليل مما ينتظرهم، الأمم المعرضة عن الله، حتى لو كانوا ينتسبون للإسلام، إذا ظهر فيهم المنكر وكان هو الغالب ولم يُغيّر، فالأحاديث والنصوص دلت على هذا، ((إلا عمهم الله بعقاب))[1]، هذا إذا كان ما وقع إنما هو متولد من المنكر وناتج عنه فهذا لا شك أنه عقوبة معجلة، وإذا كان متولداً من الطاعة فهذا رحمة، وابتلاء لرفع الدرجات وتكفير السيئات، والله أعلم.

---

١ - رواه أحمد في المسند برقم (١٩٢٣٠)، وقال محققوه: إسناده حسن، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٣١٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنبياء (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاعْبُدُونِ} [سورة الأنبياء:٢٤-٢٥].

يقول تعالى: {أم اتّخَذُواْ مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ} يا محمد، {هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ} أي: دليلكم على ما تقولون {هَذَا ذِكْرُ مَن مّعِيَ} يعني: القرآن، {وَذِكْرُ مَن قَبْلِي} يعني: الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمون، فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ناطق بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق فأنتم معرضون عنه، ولهذا قال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاعْبُدُونِ} كما قال: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} [سورة الزخرف:٤٥]، **وقال: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}** [سورة النحل:٣٦]، **فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا برهان لهم، وحجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ آلِهَةً}** هذا إضراب انتقالي، وقوله -تبارك وتعالى-: **{هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي}**، المعنى الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أنه قال لهم: هذا القرآن وهذه الكتب التي كانت قبله هل يوجد فيها ما يدل على ما ذكرتم، فهي شاهدة بأنه لا إله إلا الله، وأن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- إنما جاءوا بذلك ودعوا إليه، **{هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ}** يعني القرآن، **{وَذِكْرُ مَن قَبْلِي}**، وهذا كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وقال به جماعة من السلف، وهو اختيار ابن جرير يقول: **{هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ }** أي: ما لهم من الثواب، **{ذِكْرُ مَن مَّعِيَ}** يعني: خبر من معي بما أعد الله -عز وجل- لهم من الثواب والجزاء، **{وَذِكْرُ مَن قَبْلِي}** يعني: ما فعل الله بهم، يعني الأمم السابقة، ما حصل لهم في الدنيا، وما ينتظرهم في الآخرة، بمعنى أن هذا القرآن مشتمل على ذكر هذا وهذا، على خبر من معه من هذه الأمة، ممن اتبعه، ما لهم من الثواب على إيمانهم به -صلى الله عليه وسلم-، وطاعتهم إياه، **{هَذَا ذِكْرُ مَن مّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي}**، خبر من قبلي من الأمم، وما حل بهم، وما ينتظرهم أيضاً في الآخرة من الجزاء، فالقرآن متضمن لذلك جميعاً، فأين ما تزعمون وتقولون من وجود آلهة مع الله -تبارك وتعالى-؟.

{وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىَ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيَ إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [سورة الأنبياء:٢٦-٢٩].

يقول تعالى رداً على من زعم أن له -تعالى وتقدس- ولداً من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكة بنات الله فقال: {سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ} أي: الملائكة عباد الله مكرمون عنده في منازل عالية ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلاً، {لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ} أي: لا يتقدمون بين يديه بأمر ولا يخالفونه فيما أمرهم به، بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علمه محيط بهم فلا يخفى عليه منهم خافية {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}.

قوله: {وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً} الذين نسبوا لله -عز وجل- الولد، -كما هو معلوم- هم اليهود قالوا: العزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، وذكر بعض أهل العلم أيضاً أن اليهود قالوا: إن الله -تبارك وتعالى- قد صاهر الجن فكان الملائكة -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً-، وهذا أيضاً يُنسب إلى بعض العرب، وقال بعضهم: إن الملائكة بنات الله، وقد رد القرآن عليهم في مواضع كقوله -تبارك وتعالى-: {وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى} [سورة النحل:٦٢]، وقال: {أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى} [سورة النجم:٢١-٢٢]، إلى غير ذلك من المواضع، ولم يكن جميع العرب يقولون هذا، وإنما قاله بعضهم، ولهذا بعض أهل العلم يقول: إن المراد بذلك خزاعة، القبيلة المعروفة، وقوله: {وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ}، هذا مع قوله: {لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ} يدل على أن المراد بذلك الرد على من قالوا: إن الملائكة بنات الله، وليس المراد بذلك الذين قالوا: إن المسيح ابن الله، فقد رد عليهم في مواضع أخرى، ولا الذين قالوا: إن العزير ابن الله، فهؤلاء جاءوا بقول عظيم، حيث ادعوا أن لله ولداً، وهذا كما قال الله -عز وجل-: {لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} [سورة مريم:٨٩-٩٣]، لكن السياق يدل على أن الآيات في الرد على الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله؛ لأنه قال: {بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى} إلى آخره، فهذا فيمن زعم أن الملائكة بنات الله.

قال: {بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ} يعني هؤلاء الملائكة، فهم عباد لله -عز وجل-، قال: {لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ} يعني لا يتقدمون عليه -تبارك وتعالى- بالقول، وإنما هم في غاية الخضوع والأدب والخشية مع الله -جل جلاله-، {وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ}، كما قال الله تعالى: {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [سورة التحريم:٦].

وقوله: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} بعضهم يقول: {مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} يعني الآخرة مما يستقبلون، {وَمَا خَلْفَهُمْ} يعني الدنيا، وبعضهم يقول: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} يعني يعلم ما بين أيدي الملائكة، مما لم يبلغوه ولم يفعلوه، يعني المستقبل، وما سيكون منهم من قول وعمل، وما خلف هؤلاء الملائكة أيضاً مما مضى وانقضى، يعني يعلم ما مضى وما سيأتي، كل ذلك قد أحاط به -تبارك وتعالى-، والضمير في قوله: {يَعْلَمُ

مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} يرجع إلى الملائكة؛ لأن ما قبله في الملائكة وما بعده كذلك، قال: {وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاّ لِمَنِ ارْتَضَىَ}، وهذا في الملائكة.

وقوله: {وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاّ لِمَنِ ارْتَضَىَ} كقوله: {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} [سورة البقرة:٢٥٥]، **وقوله: {وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ}** [سورة سبأ:٢٣]، **في آيات كثيرة في معنى ذلك، {وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ} أي: من خوفه ورهبته {مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيَ إِلَهٌ مِّن دُونِهِ} أي: من ادعى منهم أنه إله من دون الله أي مع الله، {فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} أي: كل من قال ذلك، وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله: {قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ}** [سورة الزخرف:٨١]، **وقوله: {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** [سورة الزمر:٦٥].

التعليق بالشرط لا يقتضي إمكان الوقوع، كقوله: {قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ}، وقوله: {وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة الأنعام:٨٨].

{أَوَلَمْ يَرَ الّذِينَ كَفَرُواْ أَنّ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلّ شَيْءٍ حَيّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لّعَلّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السّمَاءَ سَقْفاً مّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الّذِي خَلَقَ اللّيْلَ وَالنّهَارَ وَالشّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [سورة الأنبياء:٣٠-٣٣].

يقول تعالى منبهاً على قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء وقهره لجميع المخلوقات، فقال: {أَوَلَمْ يَرَ الّذِينَ كَفَرُواْ} أي: الجاحدون لإلهيته العابدون معه غيره، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يعبد معه غيره، أو يشرك به ما سواه؟، ألم يروا {أَنّ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً} أي: كان الجميع متصلاً بعضه ببعض متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل السموات سبعاً، والأرض سبعاً، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض؛ ولهذا قال: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلّ شَيْءٍ حَيّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ} أي: وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً، وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء.

ففي كل شيء له آية * تدل على أنه واحد**

قوله -تبارك وتعالى-: {أَوَلَمْ يَرَ الّذِينَ كَفَرُواْ أَنّ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً} الرؤية هنا رؤية قلبية بمعنى العلم، أولم يعلم؛ لأنهم ما شاهدوا هذا بأعينهم وأبصارهم، ويكون المعنى {أَوَلَمْ يَرَ} أي: أولم يعلم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {أَنّ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً} الرتق: هو السد، وهو ضد الفتق، فيقال: رتقه أي سده، والسلف -رضي الله تعالى عنهم- اختلفوا في هذا الرتق ما المراد به فبعضهم يقول: كانت السماء ملتصقة بالأرض ثم بعد ذلك فصلت، وبعضهم يقول: كانت السماوات السبع متلاصقة، وكانت الأرضون السبع متلاصقة، ففتق الله -عز وجل- هذه وهذه فصارت السماوات طبقات بين كل طبقة وطبقة مسافة، وبعضهم يقول: {كَانَتَا رَتْقاً} يعني: فتقها بالهواء، وقوله: فتقها بالهواء يرجع إلى ما سبق، فإذا كانت متلاصقة فمعنى ذلك أنه لا هواء بينها، وبعضهم يقول: كانت مظلمة ففتقها بالنور والضياء، وهذا يرجع إلى أنه لما وجد هذا الفاصل بين السماء والأرض وجدت الشمس والنجوم والقمر فصارت مضيئة، {فَفَتَقْنَاهُمَا}،

وبعضهم يقول: المراد بالرتق أن السماء كانت لا تمطر، والأرض لا تنبت، وقالوا: إن هذا يفسره قوله -تبارك وتعالى-: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ} [سورة الطارق:١١-١٢]، فالرجع قالوا: هو المطر، والصدع: أي أنها تتصدع عن النبات: تتشق، والله -عز وجل- يقول: {أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا} [سورة عبس:٢٥-٢٦]، فشقها بالنبات، وهذا كله من دلائل قدرته -تبارك وتعالى-، وهذا القول قال به جماعة من أهل العلم وهو قول له وجه قوي من النظر، ولا يبعد أن تكون هذه الآية من سورة الأنبياء مفسرة بالآية الأخرى وهي قوله: {وَالسَّمَاء ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ}، وهناك قرينة أخرى في هذه الآية قد ترجح هذا المعنى وهي قوله بعده: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}، فـ{رَتْقاً} أي: لا تمطر، يعني السماء، والأرض لا تنبت، فشق هذه بالمطر وشق هذه بالنبات، ثم قال: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}، وهذا القول رجحه الشنقيطي وانتصر بأدلة متعددة، وزاد بأن قوله -تبارك وتعالى-: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا} لو كان المراد أنها متلاصقة فإن الكفار لم يروا ذلك، والذين قالوا بأنها كانت متلاصقة، يقولون بأن الرؤية قلبية وليست بصرية، يعني أولَم يعلم، لكنه يقول: إن الغالب في القرآن أنّ "رأى" المقصود بها الرؤية البصرية في الغالب، لكن إذا حمل على الغالب أن الرؤية بصرية فهم لم يروا السماء ملتصقة بالأرض حينما كانت ملتصقة على القول الآخر، ولكنهم يشاهدون كيف أن المطر ينزل فتتشق الأرض عن النبات، ويمكن أن يرد على هذا الاستدلال بأن يقال: إن القول بأن الأرض كانت لا تنبت والسماء لا تمطر أنه كان ذلك في أول الأمر، بمعنى أن الأرض أصلاً لا تنبت والسماء لا تمطر أصلاً، ففتق هذه بالمطر وهذه بالنبات، فالذي يشاهدونه هم هو ما آل إليه أمرها ثانياً، أما حينما ذكر الله هذه الصفة فهم ما شاهدوا هذا، فتبقى الرؤية أيضاً قلبية، حتى على هذا القول، ومهما يكن فهذه الأقوال يبقى أن منها ما يرجع إلى القول بأنها كانت متلاصقة، يعني حينما يقال: فتق هذه بالضياء، أو فتق هذه بالهواء، فهذا يرجع إلى القول بأنها كانت ملتصقة، وابن كثير -رحمه الله- حاول أن يجمع بين الأقوال الأولى، بمعنى أن السماء كانت ملتصق بالأرض، وكل سماء ملتصقة بالثانية، كما أن الأرضين قد التصق بعضها ببعض، كلها، فحاول رحمه الله أن يجمع بين الأقوال بحيث إنه فصل السماء عن الأرض، وفصل كل سماء عن السماء الأخرى، ووجد الضياء بين السماء والأرض، كما وجد الهواء أيضاً، والآية إذا قيل فيها بأن السماوات جميعاً كانت ملتصقة لا يشكل عليه بأن السماء مفرد؛ لأن السماء المقصود بها الجنس، فيصدق على الجمع، ولهذا وصف بالمصدر {كَانَتَا رَتْقاً}، وأما التثنية هنا {كَانَتَا} فباعتبار التقابل بين السماء والأرض، فالسماء جنس واحد كما أن الأرض جنس واحد، فقال: {كَانَتَا رَتْقاً}، أما ما يزعمه أصحاب الإعجاز العلمي والتفسير العلمي من أن قوله: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا} بأن الأرض كانت ملتصقة بالشمس، وحصلت انفجارات قبل ملايين السنين، فانفصلت الأرض عن الشمس، والحديد الموجود، أو يزعمون أنه موجود في نواة الأرض، وأنه جاء إلى الأرض من الشمس، وإلا فهو ليس من عناصرها أصلاً، وهذا الكلام باطل، ولا صحة له، ولا حصل انفجارات ولا شيء، والله -عز وجل- أخبرنا أنه خلق الأرض في يومين، وخلق السماء في يومين، وأن الله دحاها في يومين، وكل ما يقولونه لا أساس له، ومخالف لظاهر القرآن، فالله -عز وجل- قال: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ} ولم يقل: أن الأرض والشمس، والشمس لا يقال لها سماء لا لغة ولا شرعاً إطلاقاً، فإذا قيل:

السماء فهي ليست الشمس، لكن هؤلاء يأخذون عن هؤلاء الغربيين الذين لا يعرفون الله، ولا يعرفون الوحي، وكل ذلك يبنونه على هذه التخرصات، فلا يجوز تصديقهم في هذا ولا تفسير الآيات بهذا، والله أعلم.

قال: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} كثير من المفسرين فسروا الماء بأن المراد به النطفة، والله -عز وجل- أخبر أنه خلق الإنسان من ماء مهين، وقالوا: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} أي: من النطفة، ويكون بهذا الاعتبار من قبيل العام المراد به الخصوص، باعتبار أنه قال: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ} فالماء هنا يشمل كل ماء، لكنه أريد به النطفة، يعني أريد به معنىً خاص، وهذا الماء هو النطفة، فيكون عاماً في اللفظ خاصاً في المعنى، هذا الذي يسمى العام المراد به الخصوص، وبعض أهل العلم يحمله على ظاهره، يقول: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} أي: الماء الذي أنزله الله -عز وجل- من السماء، وصار مختزناً في الأرض، فيخرج منها باستخراج الناس من الآبار، أو بالينابيع، أو غير ذلك، ويكون ذلك إما مباشرة بالحيوانات التي لا تعيش إلا بالماء، وقوامها وحياتها به مباشرة، وهكذا الشرب، وهكذا أيضاً بطريق الواسطة، يعني باعتبار أن هذا الماء يخرج من النبات، والإنسان والحيوان يتغذى على هذا النبات، فالله -عز وجل- جعل من الماء كل شيء حي بهذا الاعتبار، فإذا لم يوجد هذا الماء سيهلك الإنسان والحيوان والنبات، ويكون النبات داخلاً فيه بهذا الاعتبار، فالنبات فيه حياة، وإن لم تكن مثل حياة الحيوان.

قال سفيان الثوري عن أبيه عن عكرمة قال: سئل ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الليل كان قبل أو النهار؟ فقال: أرأيتم السموات والأرض حين كانتا رتقاً هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار.

على هذا القول المروي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، يمكن أن يفسر بأنها كانت ملتصقة، يعني لا يخرج عنه.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما، قال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعال فأخبرني بما قال لك، قال: فذهب إلى ابن عباس فسأله، فقال ابن عباس: نعم كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآن قد علمت أن ابن عباس قد أوتي في القرآن علماً، صدق هكذا كانت، قال ابن عمر: قد كنت أقول: ما يُعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن علمت أنه قد أوتي في القرآن علماً.

الآن..، هذا القول من ابن عمر -رضي الله تعالى عنه- قد يفهم منه أن ابن عمر -رضي الله تعالى عنه- كان عنده ما يستند إليه في تفسير هذه الآية بهذا المعنى، فلما رأى أن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- قاله وعرفه، قال: قد علمت أنه قد أوتي علماً، وإلا لو كان مجرد اجتهاد عند ابن عمر -رضي الله تعالى عنه- فكيف يجزم أن ابن عباس قد أوتي علماً حين وافقه؟ اجتهاد وافق اجتهاداً، فلو خالفه لا ينفي هذا عن ابن عباس أنه قد أوتي علماً؛ لأنه قد علم أمراً، قال: هكذا كانت، فجزم بهذا، مع أنه شديد التورع، وما كان يقدم على التفسير كإقدام ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، ولهذا كان يقول: ما كان يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فكأنه وجد عنده ما يستند إليه في هذا المعنى، وهذا المعنى هو الذي اختاره ابن جرير

واختاره جماعة كثيرة من المفسرين منهم القرطبي، وابن عطية صاحب المحرر الوجيز، أما القول بأنه كانت الأرض ملتصقة بالشمس فهذا ما قال به أحد، وهذا يعود إلى جميع أقوال السلف بالإبطال.

وقال سعيد بن جبير: بل كانت السماء والأرض ملتزقتين فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض كان ذلك فتْقهما الذي ذكر الله في كتابه، وقال الحسن وقتادة: كانتا جميعاً ففصل بينهما بهذا الهواء.

وقوله: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} أي: أصل كل الأحياء منه، وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قلت يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء، قال: ((كل شيء خلق من ماء))، قال: قلت أنبئني عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة قال: ((أفش السلام، وأطعم الطعام، وصل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنة بسلام))[1]، وهذا إسناد على شرط الصحيحين إلا أن أبا ميمونة من رجال السنن واسمه سُليم، والترمذي يصحح له.

الحديث هذا ثابت صحيح، وفيه قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((كل شيء خلق من ماء)) ولفظة "كل" أقوى صيغة من صيغ العموم، ولا يرد على هذا أن الإنسان خلق من طين، وأن الجن خلقوا من مارج من نار، فهذا أصل الخلقة، ولكن بعد ذلك فإن الإنسان خلق من نطفة، وهي من الماء، وقوامه إنما هو بالماء.

وقوله: {وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ} أي: جبالاً أرسى الأرض بها وقررها وثقلها لئلا تميد بالناس، أي تضطرب وتتحرك، فلا يحصل لهم قرار عليها لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع، فإنه باد للهواء والشمس ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات والحكم والدلالات؛ ولهذا قال: {أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ} أي: لئلا تميد بهم.

يقول أهل العلم من المعاصرين: إن اليابسة تبلغ ما يقرب من الثلث أو أقل من الثلث، يعني يقولون: إن الماء يصل إلى حدود ٧٢ -مع بعض الكسر- في المائة من مساحة الأرض، وإن الباقي هو اليابسة.

يقول: {وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ} يعني الجبال، {أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ} أي: لئلا تميد بهم، {أَنْ تَمِيدَ} أي: كراهة أن تميد بهم، أو لئلا تميد بهم، وأصل الميد هو التحرك والدوران، فجعلها أوتاداً، كما قال الله -عز وجل-: {وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا} [سورة النبأ:٧]، فهي مثل المسامير تمسك الأرض من أجل أن لا تضطرب ولا تتحرك، {وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا} [سورة النازعات:٣٢].

وقوله: {وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً} أي: ثغراً في الجبال يسلكون فيها طريقاً من قطر إلى قطر.

الضمير في قوله: {وَجَعَلْنَا فِيهَا} يرجع إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور هو الرواسي، {وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا}، ولهذا ذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد {وَجَعَلْنَا فِيهَا} أي: في الرواسي في الجبال، جعل فيها فجوات بحيث ينتقل الناس من خلالها ويعبرون منها، وبعضهم يقول: الضمير يرجع إلى الأرض، {وَجَعَلْنَا فِيهَا} أي: في الأرض، {فِجَاجاً} سبلاً، جعل فيها طرقاً يسلكها الناس ويسيرون عليها، ينتقلون في مصالحهم وحاجاتهم.

---

١ - رواه أحمد في المسند برقم (٧٩٣٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي ميمونة، فقد روى له أصحاب السنن الأربعة، وهو ثقة، والحاكم في المستدرك برقم (٧٢٧٨)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الألباني: "إسناده صحيح" كما في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٢٣٨/٣).

يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد في الأرض يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فجوة -ثغرة- ليسلك الناس فيها من ههنا إلى ههنا؛ ولهذا قال: {لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}.

كلام ابن كثير واضح أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور وهو الجبال، {وَجَعَلْنَا فِيهَا} أي: في الجبال، فيجعل فيها بين هذه الجبال فجوات بحيث ينتقل الناس ويسيرون، وكل مخترق بين جبلين كما يقول بعض أهل معاني القرآن فهو فج، كل مخترق بين جبلين يقال له فج، وبعضهم يفسر الفجاج بالمسالك، فإذا فسر قوله -تبارك وتعالى-: {وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً} أي: في الجبال في الرواسي فيكون بما يوجد من الفجوات التي يمر بها الناس، وإذا قيل بأن ذلك يرجع إلى الأرض باعتبار أن الحديث كان عنها {وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا}، فجعل في الأرض رواسي، وجعل فيها فجاجاً، فيكون المقصود في الأرض هذه الفجاج الطرق التي يسلكها الناس، لكن إذا قيل: بأن أصل الفج في اللغة هو كل مخترق بين جبلين، فيكون {وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً} يعني بين هذه الجبال التي أرساها، وهذا القول بينه وبين القول الآخر - إنها الأرض- نوع ملازمة، فإذا جعل بين هذه الجبال فجاجاً فإن هذه الجبال في الأرض، فيكون قد جعل في هذه الأرض فجاجاً سبلاً، قال: {لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} يعني إلى مصالحهم وحاجاتهم، ومعايشهم، وما إلى ذلك.

وقوله: {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً} أي: على الأرض وهي كالقبة عليها، كما قال: {وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} [سورة الذاريات:٤٧]، وقال: {وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا} [سورة الشمس:٥]، {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ} [سورة ق:٦]، والبناء: هو نصب القبة، كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((بني الإسلام على خمس))[٢]، أي خمسة دعائم، وهذا لا يكون إلا في الخيام كما تعهده العرب، {مَحْفُوظاً} أي: عالياً محروساً أن يُنال، وقال مجاهد: مرفوعاً.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول في قوله: {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً}: "أي: **على الأرض وهي كالقبة**"، فالأرض كما هو معلوم كروية، والسماء محيطة بها من كل ناحية، فهي كالقبة على الأرض، ولذلك نحن حينما ننظر إلى الأفق نجد أن المدى في الأرض ينقطع ولا نرى إلا السماء؛ وذلك لكروية الأرض كما هو معلوم، فيقول: {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً}، محفوظاً: يمكن أن يكون محفوظاً من الشياطين، كما قال الله -عز وجل-: {وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ} [سورة الحجر:١٧]، يحتمل هذا، والآية التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: {وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا}، و{أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ} يمكن أن يفسر بأن المقصود بالسقف المحفوظ: المحفوظ من التشقق والتصدع، {وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ}، والله -تبارك وتعالى- يقول: {فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ}[سورة الملك:٣] بمعنى الشقوق، والسماء في غاية الإحكام في خلقها، ليس فيها تصدع، على مر هذه المُدد والأوقات الطويلة على خلقها مع ذلك ليس فيها تشقق، بخلاف ما يبنيه الناس، فإنه إذا طال عليه العهد تشقق وتصدع، فتكون محفوظة من التشقق والتصدع، وقال في قوله: {مَحْفُوظاً} "أي: **عالياً محروساً أن ينال، وقال مجاهد: مرفوعاً**"، وهذا يدل

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بني الإسلام على خمس)، برقم (٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أركان الإسلام ودعائمه العظام برقم (١٦) من حديث عبدالله بن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-.

عليه قوله تعالى: {وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ} [سورة الطور:٥]، وتفسر الآية الأخرى بهذا الاعتبار، وبعضهم يقول: {سَقْفاً مَحْفُوظاً} يعني من أن تقع على الأرض، فالله -عز وجل- هو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، فالله -تبارك وتعالى- هو الذي يحفظها من الوقوع وكما يقول: {وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [سورة الحج:٦٥]، {وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ} [سورة الروم:٢٥]، تقوم بمعنى أنها تثبت فلا يحصل لها وقوع، وبعضهم يقول: إنه محفوظ بالنجوم، {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً}، يعني جعلها الله -عز وجل- رجوماً للشياطين، وهذا يرجع إلى قول من قال: {مَحْفُوظاً} أي: من الشياطين، حفظها بهذه النجوم، جعلها رجوماً للشياطين، وكل ذلك يدل عليه القرآن، فإذا فسر المحفوظ بالمرفوع فهذا قد دل عليه القرآن، والآية تحتمله، وإذا فسر بأنه محفوظ من التصدع والتشقق فهذا دل عليه القرآن، وإذا قلنا: إنه محفوظ من الشياطين وهو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، فهذا دل عليه القرآن، ولو قال قائل: بأن الآية تفسر بهذا جميعاً لم يكن بعيداً؛ لأن الآية تحتمله، وكل معنى من هذه المعاني يشهد له القرآن.

وقوله: {وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ}، كقوله: {وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} [سورة يوسف:١٠٥] أي: لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم والارتفاع الباهر، وما زُينت به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلها ونهارها من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكامله في يوم وليلة، فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله الذي قدرها وسخرها وسيرها.

ثم قال منبهاً على بعض آياته: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} أي: هذا في ظلامه وسكونه وهذا بضيائه وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى وعكسه الآخر، {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} هذه لها نور يخصها، وفلك بذاته، وزمان على حدة، وحركة وسير خاص، وهذا بنور آخر وفلك آخر وسير آخر وتقدير آخر، {وكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} أي: يدورون، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: يدورون كما يدور المغزل في الفلكة، كما قال تعالى: {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [سورة الأنعام:٩٦].

{وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [سورة الأنبياء:٣٤-٣٥].

يقول تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ}: أي يا محمد {الْخُلْدَ} أي: في الدنيا بل {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [سورة الرحمن:٢٦-٢٧].

وقوله: {أَفَإِنْ مِّتَّ} أي: يا محمد {فَهُمُ الْخَالِدُونَ} أي: يؤملون أن يعيشوا بعدك، لا يكون هذا بل كل إلى الفناء.

قوله: {أَفَإِنْ مِّتَّ}: أي يا محمد {فَهُمُ الْخَالِدُونَ}، بعضهم يقول: إن قوله: {فَهُمُ الْخَالِدُونَ} أن المقصود به الاستفهام، لكن حذفت همزة الاستفهام، يعني أفهم الخالدون؟، وهذا موجود له نظائر في القرآن، وله ما يشهد له من كلام العرب، ومن ذلك قول الشاعر:

رَفَوْنِي وقالوا: يا خُويلدُ لم تُرَعْ *** وقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

يعني أهمُ همُ؟.

وقول الآخر وهو عمر بن أبي ربيعة:

بَدَا لِي مِنْهَا مِعْصَمٌ يَوْمَ جَمَّرَتْ *** وَكَفٌّ خَضِيبٌ زُيِّنَتْ بِبَنَانِ

فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَإِنِّي لَحَاسِبٌ *** بِسَبْعٍ رَمَيْتُ الْجَمْرَ أَمْ بِثَمَانِ

بسبع: يعني أبسبع رميت الجمر -الجمار-، أم بثمان، بسبع أبسبع؟، فحذف همزة الاستفهام، وشواهد هذا كثيرة، فيحتمل أن يكون {أَفَإِنْ مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ} أفهم الخالدون؟، ويحتمل أن يكون المراد به؛ لأنه ليس هنا استفهام في الثاني، {أَفَإِنْ مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ} بعدك، ليس الأمر كذلك؛ لأن الله ما جعل لبشر من قبلك الخلد، وأخذ من هذا بعض أهل العلم أن الموت ليس فيه شماتة، فإذا كان بين الإنسان وبين غيره شيء ثم مات فإنه ليس له أن يشمت به لأنه مات؛ لأن هذا أمر يجري على الجميع، لا فرق بين هذا وهذا، وكما قال بعضهم:

فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا *** سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا

فإذا كانت الشماتة بالموت فهم سيموتون، بخلاف ما يقع للإنسان من سوء العاقبة، بسبب سوء فعله، فإن هذا هو الذي قد يشمت به الناس، ولهذا يحتاج إلى أن يتجلد، وقد قال هارون -عليه الصلاة والسلام-: {فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ} [سورة الأعراف:١٥٠]، فحينما يأخذ بلحيته وبرأسه وهم ينظرون، أو يبلغهم هذا، فإن هذا يكون محلاً للشماتة، مع أن الإنسان لا يليق به أن يشمت بالناس.

أي يؤملون أن يعيشوا بعدك، لا يكون هذا، بل كل إلى الفناء؛ ولهذا قال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}.

المعنى الذي فسر به ابن كثير -رحمه الله-: "**أي: يؤملون أن يعيشوا بعدك**"، على أنه ليست هناك همزة استفهام محذوفة {فَهُمُ الْخَالِدُونَ} أي: يؤملون العيش بعدك، لا يكون هذا.

وقد روي عن الشافعي -رحمه الله- أنه أنشد واستشهد بهذين البيتين:

تَمَنَّى رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أَمُتْ * فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدِ**

فَقُلْ لِلَّذِي يَبْقَى خِلَافَ الَّذِي * مَضَى تَهَيَّأْ لِأُخْرَى مِثْلِهَا فَكَأَنْ قَدِ**

وقوله: {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} أي: نختبركم بالمصائب تارة وبالنعم أخرى، فننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَنَبْلُوكُم} يقول: نبتليكم، {بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال.

وهذه الآية صريحة في أن الابتلاء الذي يحصل للناس يكون بالمحبوب والمكروه، {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ} يعني الغنى والفقر والصحة والمرض وما أشبه ذلك، ولهذا قال بعض السلف: إن الغنى والفقر مطيتا الابتلاء، فالله يقلبهم بهذا وهذا، بل يقلبهم في الأوقات بين الحر والقُر؛ ليستخرج عبوديتهم في الشدة والرخاء، فالرخاء له عبودية، والشدة أيضاً لها عبودية غير عبودية الرخاء، فهذا بالصبر والرضا، وهذا بالشكر، وإن كان هذا أيضاً لا يخلو من صبر ورضا، والآخر أيضاً لا يخلو من شكر، فالله -تبارك وتعالى- يقلبهم، فمن الناس من قد يصبر على البلاء، ولكنه لا يصبر على النعماء والرخاء، ومن الناس من يصبر في العافية ويثبت، ولكنه لا يصبر ولا يثبت في حال الشدة، ويُقلَّب الناسُ بين هذا وهذا اختباراً لهم.

وقوله: {وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} أي: فنجازيكم بأعمالكم.

سؤال:

هل يقولون بأن الحديد نزل من الشمس أو كذا، ربما يستدلون بما ذكره الله -جل وعلا- في سورة الحديد **{وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ}** [سورة الحديد:٢٥]، كأنه نزل من علو؟

نزل الحديد من علو، لكن لا يلزم أن يكون جاء من الشمس، فإن قوله: **{وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ}** الإنزال يعني من أعلى إلى أسفل، فبعض أهل العلم قال بأن أجود الحديد ينزل من الجبال، ويستخرج منها، فهي أرفع من الأرض، فهذا معنى الإنزال، وكما قال الله -عز وجل-: **{وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ}** [سورة الزمر:٦] إما أن يكون أصول هذه الأنعام قد نزل من السماء، وإما أن يكون المقصود بأن ذكورها تنزو على إناثها فيستقر ذلك منها بالأرحام، أو باعتبار أن الولد ينزل إلى الأرض حينما يولد، فالإنزال متحقق بهذه المعاني، وتحتمل الآية **{وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ}** أن يكون أنزله الله -عز وجل- من السماء، لكن من أين لهم أن الأرض كانت ملتصقة بالشمس، وأن هذا الحديد وجد من الشمس، وأن الشمس فيها حديد؟ كيف عرفوا ذلك؟ ويقولون بأن نواة الشمس عبارة عن حديد، ولا يوجد دليل على كل هذه الأشياء، وإنما هي عبارة عن نظريات من الغرب.

ولا يجوز أن يفسر القرآن بالنظريات، فهذه أشياء ليست ثابتة، فرضيات، فلا يفسر بها القرآن، فهذه النظريات جاء بها الغرب، القرآن أجل وأعظم من هذا، وهم لا يحتملون سماع هذا الكلام، يزعجهم جداً، يضيقون به ذرعاً، فلا تضرب أقوال السلف كلها، وتأتي بشيء لا تدل عليه اللغة، **{كَانَتَا رَتْقًا}** فتقول: مع الشمس لاصقة، السماء هي الشمس.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنبياء(٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: {وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوَاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ * خُلِقَ الإِنسان مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ} [سورة الأنبياء:٣٦-٣٧].

قال المؤلف -رحمنا الله وإياه-: يقول تعالى لنبيه -صلوات الله وسلامه عليه-: {وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوَاْ يعني: كفار قريش كأبي جهل وأشباهه، {إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً} أي: يستهزئون بك وينتقصونك، يقولون: {أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ} يعنون أهذا الذي يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم؟، قال تعالى: {وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ} أي: وهم كافرون بالله ومع هذا يستهزئون برسول الله، كما قال في الآية الأخرى: {وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً * إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً} [سورة الفرقان:٤١-٤٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً}**، "إن" هذه هي النافية، بمعنى ما يتخذونك إلا هزواً، يعني مهزوءاً بك، يستهزئون به، وهذا الاستهزاء يقولون: **{أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ}**، **{أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ}**، والذكر إذا قالت العرب: فلان يذكر فلاناً فإن ذلك يكون في المدح أو الذم، بحسب المقام، فإن كان يحبه فإنه يفهم من ذلك المدح، يذكر فلاناً، فلان يذكرك، ذكرك في مجلسه، بمعنى أثنى عليك، وإذا كان يبغضه ويعاديه، فإن ذلك يعني الذم، فلان يذكرك بمعنى أي أنه يعيبك ويذمك.

{أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ} أي: بالعيب والنقص، ويعيبها ويذمها، ويقول: إنها ليست بآلهة، وإنها لا تنفعهم، والله -تبارك وتعالى- يقول عنهم: **{وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ}**، الذكر هنا مصدر يحتمل أن يكون المراد به **{وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ}** أي: بكتابه، وهو هذا القرآن، فهو ذكره **{وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ}** [سورة الزخرف:٤٤]، فهم كافرون به، ويحتمل أن يكون: **{وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ}** أي: أنهم كافرون بالله -عز وجل-، بما ينسبون إليه من النقائص، ويجعلون له الشركاء، فعبدوا معه غيره.

وقوله: {خُلِقَ الإِنسان مِنْ عَجَلٍ} كما قال في الآية الأخرى: {وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً} [سورة الإسراء:١١] **أي: في الأمور، والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول -صلوات الله وسلامه عليه- وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلتْ ذلك، فقال الله تعالى: {خُلِقَ الإِنسان مِنْ عَجَلٍ}؛ لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، ويُنظر ثم لا يؤخر؛ ولهذا قال: {سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي} أي: نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني {فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ}.**

قوله: {خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فسرها بقوله: {وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً} قال: "**أي في الأمور**"، بمعنى أن قوله: {خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ} المراد بالعَجل هنا العجلة، ومعلوم أن الإنسان خلق من نطفة، وأن أصله من طين في خلق أبينا آدم -صلى الله عليه وسلم-، ولكن العرب قد تعبر بمثل هذا في ذكر الأوصاف لبيان شدة رسوخها وتعلقها، وملازمتها لهذا الإنسان، {خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ} لشدة تمكن العجلة فيه كأنه قد خلق منها، وهذا هو الراجح، والمتبادر من معنى الآية، وبعضهم يقول: {خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ} أي: من طين، فالطين يقال له: عجل، وهذا وإن كان صحيحاً في كلام العرب، إلا أنه خلاف الظاهر المتبادر، والقرآن لا يجوز حمله على غير الظاهر المتبادر إلا بدليل يجب الرجوع إليه، فالظاهر المتبادر أن المراد بالعجل العجلة، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً}، وبعض أهل العلم يرجع {خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ} إلى خلْقه، أن الله خلقه في آخر ساعة من الجمعة، يعني خلق في وقت يسير، {خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ}، لا أن ذلك يدل على صفته هو، وإنما يدل على صفة خلقه، خَلقهُ الله في وقت يسير، خلق في آخر ساعة من الجمعة، {خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ} يعني: في عجل، في وقت يسير قصير في آخر النهار، بآخر أيام الخلق، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وأظن -والله أعلم- أن هذا القول هو أضعف هذه الأقوال وأبعدها، والله -تبارك وتعالى- خلق كل شيء بقوله: "كن" فكان، فهذه السماوات والأرض خلقها الله -عز وجل- جميعاً وما فيها في ستة أيام، وهذا وقت يسير، والإنسان إنما هو واحد مما لا يحصيه إلا الله -عز وجل- من المخلوقات المبثوثة في السماوات والأرض، والله -عز وجل- إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فيكون، فهذا لا يختص بالإنسان، وتفسير {خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ} بهذا مع أن في الآية قرينة تدل على خلافه، وهو قوله: {سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ} فدل على أن ذلك المراد به العجلة، التي هي صفة راسخة فيه، فينهاه عن مقتضياتها وآثارها، {سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ}، ولهذا فإن قول جمهور المفسرين -كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: إن المقصود به العجلة التي طبع عليها الإنسان وجبل عليها، وأما المناسبة في ذكر هذا الخلق بهذه الصفة {خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ} وفي هذا السياق من الآيات في الرد على المشركين، فإن الله -تبارك وتعالى- قال: {خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ}، المشركون لما كانوا يطلبون الآيات، والمقصود بالآيات يعني كتلك التي نزلت على الأنبياء، كناقة صالح، الآيات التي يقترحونها، وعصا موسى، وغير ذلك مما أظهره الله -عز وجل- من الخوارق على أيدي الأنبياء السابقين، فهم يطلبونها، ويقولون: أين هذه الآيات، لماذا لا يأتي بآية؟، فالله يرد عليهم يقول: {خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ}، وذلك بما يظهره الله -عز وجل- على يد رسوله -صلى الله عليه وسلم- من دلائل صدقه، من الحجج والبراهين الدامغة التي لا تترك في الحق لبساً.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: {سَأُرِيكُمْ آيَاتِي} "**أي: نقمي**"، يعني على من عصاني، {فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ} حمل الآيات على النقم، كما تقول: اللهم أرنا فيه آية، أي: نقمة، قارعة تنزل به، وهذا باعتبار أنهم استعجلوا العقوبة، وقالوا: أرنا ما تعدنا، قال: {سَأُرِيكُمْ آيَاتِي}، والمعنى الثاني هو الذي ذكرته أي ما يدل على صدقه -صلى الله عليه وسلم.

وقال سبحانه: {وَيَقُولُونَ مَتَىَ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ} [سورة الأنبياء:٣٧-٤٠].

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم تكذيباً وجحوداً وكفراً وعناداً واستبعاداً، فقال: {وَيَقُولُونَ مَتَىَ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}، قال الله تعالى: {لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ} أي: لو تيقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا به، ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم {لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ} [سورة الزمر:١٦]، **{لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ}** [سورة الأعراف:٤١]، **وقال في هذه الآية: {حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ}، وقال: {سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ}** [سورة إبراهيم:٥٠]، **فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم.**

ذكر الله -تبارك وتعالى- جهتين حين لا يكفون النار عن الوجوه والظهور، فذكر الوجوه والظهور -والله تعالى أعلم- ليدل على الإحاطة، وهذا يكثر ذكره في القرآن، وهو معروف في كلام العرب، الله -عز وجل- يقول: **{وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ}** [سورة البقرة:١١٥] فهذا لبيان أن جميع ما في هذا الكون ملك لله -عز وجل-، يعني والشمال والجنوب، فيذكر الجهتين ليدل على الباقي، ولهذا أورد الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هذه الآيات التي تدل على إحاطة النار بهم من كل جانب، **{أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا}**[سورة الكهف:٢٩]، ومثل هذه النماذج في تفسير ابن كثير وهي كثيرة لا تكاد تخلو منها صفحة، هذه كلها مفيدة في تفسير القرآن بالقرآن، وهو الجانب الذي يعتني به الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، **{لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ}**، المهاد الذي يكون تحتهم، مثل مهاد الصبي، كالفراش، وهنا **{وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ}**، **{لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ}** إلى غير هذا من الآيات.

قوله: {وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} أي: لا ناصر لهم، كما قال: {وَمَا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِن وَاقٍ} [سورة الرعد:٣٤]، **وقوله: {بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً} أي: تأتيهم النار بغتة أي فجأة، {فَتَبْهَتُهُمْ} أي: تذعرهم، فيستسلمون لها حائرين، ولا يدرون ما يصنعون، {فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا} أي: ليس لهم حيلة في ذلك.**

تبهتهم يعني تَفْجؤهم، وبعضهم يقول: تحيرهم، وبين هذه المعاني ملازمة، إذا فجأته فإنه يتحير، لا يدري كيف يصنع، كيف يتصرف للمفاجأة، فهو لم يسبق له استعداد من أجل أن يزوّر في نفسه تصرفاً، يتهيأ لشيء يفعله، فيستسلمون لها حائرين.

قال بعضهم: الضمير في قوله: **{فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا}** يرجع إلى النار، أي: لا يستطيعون رد النار التي تحرقهم وتحيط بهم من كل جانب، وبعضهم يقول: راجع إلى الوعد، بتأويله بالعدة، فهم يتساءلون يقولون: **{مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}**، فقال الله: **{لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا}** يعني: العدة، وإن كان هذا يحتمل، لكن الذي قبله أوضح منه -والله تعالى أعلم- في المعنى، **{فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا}** يعني: النار التي ذكرها الله -تبارك وتعالى-، وقوله -تبارك وتعالى-: **{لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ**

النّارَ} إلى آخر ما ذكر، لم يذكر جواب "لو"، وجواب "لو" يحذف في مواضع كثيرة ثقة بفهم السامع، إذا كان ذلك يدرك، وذلك يكون في بعض المقامات أبلغ، في أحوال من التخويف والتهويل، أو الترغيب أيضاً، فأنت قد تقول لآخر: لو تعلم ما ينتظرك، لو تدري، يعني لما قلت كذا، يعني لما فعلت كذا، وأحياناً يذكر، ((لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً))[1].

{وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ} أي: **ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة.**

وقال سبحانه: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلاَ هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ} [سورة الأنبياء:٤١-٤٣].

يقول تعالى مسلياً لرسوله -صلوات الله وسلامه عليه- عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} **يعني: من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه، كما قال تعالى:** {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقَدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ} [سورة الأنعام:٣٤]، **ثم ذكر تعالى نعمته على عبيده في حفظه لهم بالليل والنهار، وكلاءته وحراسته لهم بعينه التي لا تنام، فقال:** {قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ} **أي: بدل الرحمن، يعني غيره.**

{قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ}، يقول هنا: "**أي بدل الرحمن**"، فيكون المراد بـــ"مِن" هنا الدلالة على البدلية، "يكلؤكم من الرحمن" أي: بدلاً منه، وهذا المعنى صحيح في لغة العرب، وقد جاء في القرآن ما يدل على هذا، وله شواهد من العربية، فالله -عز وجل- يقول: {وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ} [سورة الزخرف:٦٠]، ومعنى {لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً} أي: نجعلكم ملائكة، أو أن المقصود أي: بدلاً منكم، لا أنهم يتحولون إلى ملائكة، فيكون معنى: {لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً} أي: لجعلنا بدلاً منكم ملائكة في الأرض يخلفون، على أحد القولين في تفسير الآية، يعني بدلكم، ومن هذا أيضاً قول الشاعر:

جاريةٌ لم تأكل المرقّقاً *** ولم تذقْ من البقول الفُستقا

ولم تذق من البقول، يعني بدلاً منها، فالشاهد أن هذا معنى، وهو معنى قريب -والله تعالى أعلم-، ويحتمل أن يكون قوله: {قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم} مضمناً معنى يجيركم وينجيكم، {مَن يَكْلَؤُكُم} أي: من يجيركم من الرحمن، يجيركم منه، ومن ينجيكم منه، وسبق الكلام على التضمين، وأن الفعل قد يضمن معنى الفعل فيعدى بتعديته، يعني بتعدية الفعل الذي قد ضمن معناه، فإذا قلت: يجيركم فإن هذا يعدى بمن، يجيركم من الرحمن، إذا قلت: إنه مضمن معنى ينجيكم، يكلؤكم: الكلاءة بمعنى الحفظ، فإذا ضمن معنى ينجيكم، فإن ينجي يعدى بمن، ينجيكم من الرحمن.

وقوله تعالى: {بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ} **أي: لا يعترفون بنعمة الله عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه، ثم قال:** {أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا} **استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ، أي ألهم**

---

١ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ} [سورة المائدة:١٠١]، برقم (٤٣٤٥)، من حديث أنس -رضي الله عنه-، ومسلم، كتاب الفضائل، باب توقيره -صلى الله عليه وسلم- وترك إكثار سؤاله، برقم (٢٣٠٩).

آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا، ولا كما زعموا؛ ولهذا قال: {لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ} أي: أن هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم.

قوله: {أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مّن دُونِنَا}، {مّن دُونِنَا} يحتمل أن يكون متعلقاً بآلهة، فيكون المعنى أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم، ويحتمل أن يكون متعلقاً بتمنعهم، فيكون المعنى أي: تمنعهم من الله، تمنعهم تعصمهم فلا يصل إليهم بأس الله -عز وجل-، على المعنى الأول: {أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ} أنه متعلق بآلهة، يعني آلهة من دوننا، وهذا كثير في القرآن {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا} [سورة مريم:٨١]، ويمكن أن يفسر بهذا فتكون الآلهة من دونه، ويحتمل المعنى الآخر، والمعنى الأول رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- باعتبار أنه كثيراً ما يرد في القرآن، أن يكون متعلقاً بآلهة، {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً}.

وقوله: {وَلاَ هُمْ مّنّا يُصْحَبُونَ} قال العوفي عن ابن عباس: {وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ} أي: يجارون.

قوله: {وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ} "أي: **يجارون**"، وهذا هو المعنى المشهور، الذي عليه كثير من المفسرين واختيار ابن جرير، ورجحه الشنقيطي من المعاصرين، وابن جرير -رحمه الله-، وبعض الذين رجحوا هذا المعنى مثل الشنقيطي يقولون بأن المعاني الأخرى راجعة إليه، فقول من قال بأن معناه: ينصرون مثلاً فالله -تبارك وتعالى- يقول: {وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ}، أي: ينصرون، أو يمنعون، المعنى متقارب، فإذا قيل: يجارون فإن إجارتهم تعني منعهم، ونصرهم، فذلك يرجع إلى معنًى واحد، والله تعالى أعلم.

وقال سبحانه: {بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتّىَ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ * قُلْ إِنّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلاَ يَسْمَعُ الصّمُّ الدّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ * وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مّنْ عَذَابِ رَبّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبّةٍ مّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىَ بِنَا حَاسِبِينَ} [سورة الأنبياء:٤٤-٤٧].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال أنهم مُتّعوا في الحياة الدنيا ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء، ثم قال واعظاً لهم: {أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا}.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يذكر المناسبة بين قوله: {بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ} وما قبلها فيقول: "**إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال أنهم مُتعوا في الحياة الدنيا، وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء**"، فهذا التمتيع الذي حصل لهم والإنعام والإفضال والإمهال بسبب أنهم على جادة؟ وعلى عمل صحيح؟ وعبادة قويمة؟ فالله -عز وجل- يرد عليهم {بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتّىَ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ}، ولكن هذا لا يعني أنهم على حق، بل وجّه نظرهم إلى ما يحصل حولهم، على أحد الأقوال كما سيأتي، {أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} فالواجب أن لا يغتر أحد بالإمهال، ويمكن أن يقال: لما أبطل الله -عز وجل- معبودات المشركين وما هم عليه من عبادة غير الله -عز وجل- أضرب عن ذلك منتقلاً إلى بيان أن ما هم فيه من الخير والتمتيع والإمهال أن ذلك ليس بسبب مانع يمنعهم من الله -تبارك وتعالى-، وإنما الله أمهلهم لعلهم يرجعون ويتوبون، ولكن إذا أراد أخذهم فإنه يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فلا يغتر أحد بإمهال الله -عز وجل-، كما لا يغتر بما يفيض عليه ويدر عليه من النعم، فإذا كان العبد على غير

طريقة مستقيمة فإن هذا يكون من قبيل الاستدراج، كما قال الله -عز وجل-: {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [سورة الأعراف:١٨٣]، فإذا رأيت الله -عز وجل- يوالي نعمه على عبده وهو في حال من الإعراض عنه فإن ذلك استدراج، ليزداد إثماً، وإذا كان العبد على طاعة واستقامة ونحو ذلك رُجي أن يكون ذلك من باب الإفضال والإنعام، وما يعجل للإنسان في هذه الدنيا من جزاء الأعمال الصالحة، والله أعلم.

كقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ} [سورة الأحقاف:٢٧]، وقال الحسن البصري: يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر، والمعنى: أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة وإنجائه لعباده المؤمنين؟؛ ولهذا قال: {أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ}.

المراد بقوله: {أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} كقوله: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ}، والمقصود بالقرى المُهلَكة التي نزلت بها المثلات والعقوبات، مثل ثمود، وقوم لوط، وقوم هود، وغير ذلك ممن عذبهم الله -عز وجل-، كما يقول الله -عز وجل-: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[سورة الصافات:١٣٧-١٣٨]، ولما ذكر قوم لوط قال: {مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ}[سورة هود: ٨٣] أي: العقوبة، وهذه الآية {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى} يعني القرى المهلكة المعذبة، فيكون هذا التفسير باعتبار {أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} بإهلاك المكذبين والظالمين والمجرمين؛ لأن هناك معنى آخر وهو أن المقصود به الذين في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- تأخذهم سراياه وجيوشه حول مكة، {نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا}، ولهذا يقول: قال الحسن البصري: يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر، فقول الحسن المقصود به: أن {نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} يعني: بما يحصل من الانتصارات على الكفار حول مكة، بفتح خيبر، بغزو بني المصطلق، وما حصل من الانتصار عليهم، وما إلى ذلك، والمعنى: أفلا يعتبرون؟.

وبعضهم يقول: {أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} أن المقصود بذلك موت العلماء، لكن هذا خلاف الظاهر المتبادر من القرآن، وبعض من يتكلم في التفسير العلمي والإعجاز العلمي يقول: إن اليابسة تتقلص وتقل، وما أشبه ذلك، وليس هذا هو الذي تفسر به الآية، والله أعلم.

ويقول الشيخ محمد الشنقيطي -رحمه الله- في قوله تعالى: {أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ}": في معنى إتيان الله الأرض ينقصها من أطرافها في هذه الآية الكريمة أقوال معروفة للعلماء، وبعضها تدل له قرينة قرآنية:

قال بعض العلماء: نقصها من أطرافها موت العلماء، وجاء في ذلك حديث مرفوع عن أبي هريرة، وبُعد هذا القول عن ظاهر القرآن بحسب دلالة السياق ظاهر كما ترى.

وقال بعض أهل العلم: نقصها من أطرافها خرابها عند موت أهلها.

وقال بعض أهل العلم: نقصها من أطرافها هو نقص الأنفس، والثمرات، إلى غير ذلك من الأقوال، وأما القول الذي دلت عليه القرينة القرآنية فهو أن معنى {نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} أي: ننقص أرض الكفر ودار الحرب، ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها، وإظهارهم على أهلها، وردها دار إسلام، والقرينة الدالة على هذا المعنى هي قوله بعده: {أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ} والاستفهام لإنكار غلبتهم، وقيل: لتقريرهم بأنهم مغلوبون لا

غالبون، فقوله: {أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ} دليل على أن نقص الأرض من أطرافها سبب لغلبة المسلمين للكفار، وذلك إنما يحصل بالمعنى المذكور، ومما يدل لهذا الوجه قوله تعالى: {وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ} [سورة الرعد:٣١] على قول من قال: إن المراد بالقارعة التي تصيبهم سرايا النبي -صلى الله عليه وسلم- تفتح أطراف بلادهم، أو تحل أنت يا نبي الله قريبا من دارهم، وممن يروى عنه هذا القول: ابن عباس، وأبو سعيد، وعكرمة، ومجاهد، وغيرهم، وهذا المعنى الذي ذكر الله هنا ذكره في آخر "سورة الرعد" أيضا في قوله: {أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [سورة الرعد:٤١] وقال ابن كثير -رحمه الله- في تفسير آية "الأنبياء" هذه: إن أحسن ما فسر به قوله تعالى: {أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} هو قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [سورة الأحقاف:٢٧].

قال مقيده -عفا الله عنه وغفر له-: ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- صواب، واستقراء القرآن العظيم يدل عليه، وعليه فالمعنى: أفلا يرى كفار مكة ومن سار سيرهم في تكذيبك يا نبي الله والكفر بما جئت به أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أي: بإهلاك الذين كذبوا الرسل كما أهلكنا قوم صالح وقوم لوط، وهم يمرون بديارهم. وكما أهلكنا قوم هود، وجعلنا سبأ أحاديث ومزقناهم كل ممزق، كل ذلك بسبب تكذيب الرسل والكفر بما جاءوا به، وهذا هو معنى قوله: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى} كقوم صالح وقوم لوط وقوم هود وسبأ، فاحذروا من تكذيب نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- لئلا نُنْزِلَ بكم مثل ما أنزلنا بهم، وهذا الوجه لا ينافي قوله بعده: {أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ} والمعنى أن الغلبة لحزب الله القادر على كل شيء، الذي أهلك ما حولكم من القرى بسبب تكذيبهم رسلهم، وأنتم لستم بأقوى منهم، ولا أكثر أموالاً ولا أولاداً، كما قال تعالى: {أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ} [سورة الدخان:٣٧] الآية، وقال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [سورة غافر:٨٢]، وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا} [سورة الروم:٩] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

وإنذار الذين كذبوه -صلى الله عليه وسلم- بما وقع لمن كذب مَن قبله من الرسل كثير جدا في القرآن، وبه تعلم اتجاه ما استحسنه ابن كثير -رحمه الله- من تفسير آية "الأنبياء" هذه بآية "الأحقاف" المذكورة كما بينا"[٢].

والفرق بين القولين واضح، {نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} يعني بظهور المسلمين وأخذ القرى، وذلك بما يتحقق من الانتصارات على يد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، فتأخذهم جيوشه وسراياه قرية بعد قرية حتى يتسع نطاق الإسلام، ويمتد حكمه وهيمنته، والمعنى الثاني: أن الأخذ إنما هو بما ينزل من العقوبات، أو ما نزل من العقوبات على الأمم المكذبة، هذا الذي اختاره ابن كثير وهو الذي رجحه الشنقيطي -رحمه الله-،

---

٢ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للعلامة الشنقيطي (٤/١٥٧-١٥٨).

وما ذكره الشنقيطي -رحمه الله- من أن قوله: {أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ} قد يكون قرينة للمعنى الآخر، وهو أن المقصود الانتصار الذي يحصل للمسلمين ليس بلازم؛ لأن الله -عز وجل- هو الغالب، فالله -تبارك وتعالى- يخبر أنه أخذ القرى المكذبة فيقول: {أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ}، فالله -تبارك وتعالى- غالب على أمره، فيهلك من شاء إهلاكه وينزل به ألوان العقوبات، ولا يستطيع أحد أن يرد ذلك أو يمتنع منه.

ولهذا قال: {أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ} يعني: بل هم المغلوبون، الأسفلون، الأخسرون، والأرذلون.

وقوله: {قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ} أي: إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال، ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إلي، ولكن لا يجدي هذا عمن أعمى الله بصيرته وختم على سمعه وقلبه، ولهذا قال: {وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ}.

قوله تعالى: {وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ} يحتمل أن يكون من جملة ما أمره الله أن يقوله لهم، {قُلْ} أي: يا محمد {إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ} يعني: وقل لهم: {وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ}، ويحتمل أن يكون ذلك من كلام الله -عز وجل-، {قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ} ثم الله يقول: {وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ} يقول: وإن أنذرتهم به مع العلم بأن الصم لا يسمعون الدعاء، فالله -تبارك وتعالى- قد أصم أسماعهم، عن السماع الذي ينفعهم، وهذا يحتمل، وفي قراءة ابن عامر، وهي قراءة متواترة {ولا تُسمِع الصمَّ الدعاءَ}، فعلى هذه القراءة واضح أن هذا من كلام الله -عز وجل-، يعني يكون ما أُمر أن يقوله لهم: {إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ} فقط، قل لهم: {إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ} ثم قال: {ولا تُسمِع الصمَّ الدعاءَ} حينما تقول لهم هذا فأنت لا تسمعهم سماع انتفاع، أو سماعاً أو إسماعاً ينفعهم، فتهتدي قلوبهم وتصلح وتزكو نفوسهم، فهذه القراءة لا احتمال فيها، أما القراءة الثانية فهي تحتمل، ويمكن أن تكون القراءة الأخرى مبينة للقراءة الأولى {وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ} أنه من كلام الله -عز وجل-، والقراءتان إذا كان لكل قراءة معنى فإنهما بمنزلة الآيتين.

وقوله: {وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} أي: ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله ليعترفن بذنوبهم وأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم.

يقول: "**ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء**"، باعتبار أن النفحة هي الشيء القليل اليسير، بعضهم يقول: هذا مأخوذ من نفح المسك، وابن جرير -رحمه الله- يفسر النفحة بالحظ والنصيب، {وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ} يعني: تقول: فلان نفح فلاناً من عطائه، يعني أعطاه قسماً وحظاً ونصيباً من المال، {وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ} أي: شيء من عذاب الله -تبارك وتعالى-، وقد يفهم من هذا اللفظ والتركيب أن المقصود به الشيء اليسير، {مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ} أصابهم شيء يسير، فإنهم يقولون: {يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ}.

وأنهم كانوا ظالمين أنفسهم في الدنيا، وقوله: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا} أي: ونضع الموازين العدل ليوم القيامة، الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جُمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه.

وقوله: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ} يعني العدل، فالقسط هنا يمكن أن يكون صفة للموازين، فهو مصدر "قِسْط" مصدر يوصف به، تقول: ميزان قسط، وموازين قسط، يعني ميزان عدل وموازين عدل، تقول: هم قوم

عدل، يعني عدول، وهم قوم رضا، يعني أنهم مرضيون، فالمصدر يوصف به، ويكون لفظه مفرداً، ويوصف به الجمع كما يوصف به المفرد، يعني {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ} أي: ذوات القسط، {لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ}، وبعضهم يقول: فيه تقدير أي: لأهل يوم القيامة، {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} أي: لأهل يوم القيامة، وقالوا: هذا محذوف يفهم من السياق، مثلما قال الله تعالى: {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ} [سورة يوسف:٨٢] أي: واسأل أهل القرية، {وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا} أي: واسأل أهل العير، وبعضهم يقول: اللام بمعنى "في" وحروف الجر تتناوب، {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} أي: في يوم القيامة، وابن جرير -رحمه الله- يرجح أن يكون المراد: لأهل يوم القيامة، ويحتمل أن تكون اللام هذه للتوقيت، والعلم عند الله -عز وجل-، يقول: "**الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جُمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة**"، ويقول العلامة الشنقيطي -رحمه الله-: "وقوله في هذه الآية الكريمة: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ} جمع ميزان، وظاهر القرآن تعدد الموازين لكل شخص؛ لقوله: {فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ} [سورة الأعراف:٨]، وقوله: {وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ} [سورة الأعراف:٩]"[٣].

فالجمع في قوله: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ} باعتبار أن كل واحد له ميزان، يحتمل أن يكون ميزان واحد يوزن به الناس جميعاً، ويحتمل أن يكون هناك موازين، الأشخاص يوزنون، والأعمال توزن، كما في حديث البطاقة، والسجلات توزن، والحديث: ((يؤتى بالرجل السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة))[٤].

وقال -رحمه الله-: "فظاهر القرآن يدل على أن للعامل الواحد موازين يوزن بكل واحد منها صنف من أعماله، كما قال الشاعر:

ملكٌ تقوم الحادثات لعدله *** فلكل حادثة لها ميزانُ

والقاعدة المقررة في الأصول: أن ظاهر القرآن لا يجوز العدول عنه إلا بدليل يجب الرجوع إليه، وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة: الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه، وقد قدمنا في آخر سورة "الكهف" كلام العلماء في كيفية وزن الأعمال، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقوله في هذه الآية: {الْقِسْطَ}: العدل، وهو مصدر وصف به، ولذا لزم إفراده، كما قال في الخلاصة:

ونعتوا بمصدرٍ كثيراً *** فالتزَموا الإفراد والتذكيراً

كما قدمناه مراراً، ومعلوم أن النعت بالمصدر يقول فيه بعض العلماء: إنه المبالغة، وبعضهم يقول: هو بنيّة المضاف المحذوف، فعلى الأول كأنه بالغ في عدالة الموازين حتى سماها القسط الذي هو العدل، وعلى الثاني فالمعنى: الموازين ذوات القسط"[٥].

هذا على تقدير محذوف، موازين القسط أي ذوات القسط، لكن للمبالغة أنها موازين القسط يعني كأنه وصفها بأنها قسط، مبالغة في كونها؛ لأنها آلة العدل.

---

٣ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للعلامة الشنقيطي (١٥٩/٤).

٤ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} [سورة الكهف:١٠٥]، برقم (٤٤٥٢)، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، برقم (٢٧٨٥).

٥ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للعلامة الشنقيطي (١٥٩/٤-١٦٠).

وقال -رحمه الله-: "واللام في قوله: {لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} فيها أوجه معروفة عند العلماء:

منها: أنها للتوقيت، أي الدلالة على الوقت، كقول العرب: جئت لخمس ليال بقين من الشهر، ومنه قول نابغة ذبيان:

توهمت آيات لها فعرفتها *** لستة أعوام وذا العام سابع"[٦]

لستة أعوام، اللام للتوقيت، وهو أحد الأقوال في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} [سورة الحشر:٢]، فإن اللام هذه بعضهم يقول: هي للتوقيت، فهي تدل على الزمن، باعتبار أنه {لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} أي: لأول حشر الجيش لهم، يعني تساقطوا لمجرد حشر الجيش لهم، ويحتمل أن يكون المعنى غير هذا، بل هذا من أبعد المعاني في تفسير هذه الآية: {لِأَوَّلِ الْحَشْرِ}.

وقال -رحمه الله-: "ومنها: أنها لام "كي"، أي نضع الموازين القسط لأجل يوم القيامة، أي لحساب الناس فيه حساباً في غاية العدالة والإنصاف.

ومنها: أنها بمعنى "في": أي نضع الموازين القسط في يوم القيامة.

والكوفيون يقولون: إن اللام تأتي بمعنى في، ويقولون: إن من ذلك قوله تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} أي: في يوم القيامة.

وقوله تعالى: {لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ} [سورة الأعراف:١٨٧] أي: في وقتها، ووافقهم في ذلك ابن قتيبة من المتقدمين، وابن مالك من المتأخرين، وأنشد مستشهدا لذلك قول مسكين الدارمي:

أولئك قومي قد مضوْا لسبيلهم *** كما قد مضى من قبلُ عادٌ وتُبّعُ

يعني مضوا في سبيلهم، وقول الآخر:

وكل أب وابن وإن عمّرا معاً *** مقيميْن مفقودٌ لوقت وفاقدٌ

أي: في وقت.

وقوله تعالى في هذه الآية: {فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا} يجوز أن يكون شيئاً هو المفعول الثاني لـــ {تُظْلَمُ}"[٧].

---

٦ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للعلامة الشنقيطي (١٦٠/٤).

٧ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للعلامة الشنقيطي (١٦٠/٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنبياء (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

وقوله: {فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [سورة الأنبياء: (٤٧)]، كما قال تعالى: {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [سورة الكهف: (٤٩)]، وقال: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [سورة النساء(٤٠)]، وقال لقمان: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [سورة لقمان: (١٦)]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم))[١].

وروى الإمام أحمد أيضاً عن عائشة -رضي الله تعالى عنها-: أن رجلاً من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-ورضي عنهم- جلس بين يديه، فقال: يا رسول الله، إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني، وأضربهم وأشتمهم، فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل الذي بقي قِبَلك))، فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويهتف، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ماله لا يقرأ كتاب الله {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ})) فقال الرجل: يا رسول الله ما أجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء -يعني عبيده- إني أشهدك أنهم أحرار كلهم[٢].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [سورة الأنبياء: (٤٧)]، قراءة الجمهور {مِثْقَالَ} بالنصب، ومثقال الشيء هو ميزانه، وقرأ نافع بالرفع {مِثْقَالُ} باعتبار أن كان تامة، بمعنى وُجِد مثقالُ حبة من خردل.

---

[١] - رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا قال والله لا أتكلم اليوم فصلى أو قرأ أو سبح أو كبر أو حمد أو هلل فهو على نيته (٦ / ٢٤٥٩)، برقم: (٦٣٠٤)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٤ / ٢٠٧٢)، برقم: (٢٦٩٤).

[٢] - رواه الترمذي، كتاب التفسير، باب سورة الأنبياء (٥ / ٣٢٠)، برقم: (٣١٦٥)، وأحمد (٤٣ / ٤٠٦)، برقم: (٢٦٤٠١)، وصححه الألباني.

قوله: {وَكَفَىَ بِنَا حَاسِبِينَ}، الحسب هو العد والإحصاء، يعني: وكفى بنا مُحصين، وفسرها بعض أهل العلم بالعلم، والمعنى: كفى بنا عالمين، فإن هذا من باب الملازمة، فإن من أحصى شيئاً وحسبه فإنه يكون عالماً به كما لا يخفى.

قوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ * وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ} [سورة الأنبياء (٤٨ - ٥٠)].

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد -صلوات الله وسلامه عليهما-، وبين كتابيهما؛ ولهذا قال: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىَ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ} قال مجاهد: يعني الكتاب. وقال أبو صالح: التوراة. وقال قتادة: التوراة حلالها وحرامها، وما فرق الله بين الحق والباطل.

وجامع القول في ذلك أن الكتب السماوية مشتملة على التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام، وعلى ما يحصل نوراً في القلوب وهداية وخوفاً وإنابة وخشية؛ ولهذا قال: {الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ} أي تذكيراً لهم وعظة.

قوله - تبارك وتعالى-: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ}** الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أن الفرقان هو الكتاب الذي فرق الله به بين الحق والباطل، وبيّن فيه الحلال والحرام.

وقال بعض المفسرين: إن الفرقان هو النصر على الأعداء، وقد سمى الله -تبارك وتعالى- يوم بدر بيوم الفرقان، فقال: **{وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ}** [سورة الأنفال: (٤١)]، وقد فرق الله عز وجل- بين موسى -عليه الصلاة والسلام- وبين فرعون، فأهلك فرعون وأغرقه.

وقال بعض أهل العلم: المراد بالفرقان هو الحق الذي فرق الله –عز وجل– به بين موسى وفرعون يوم أن التقى موسى مع السحرة، **{فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}**[سورة الأعراف (١١٨)] ، وهذا هو اختيار ابن جرير -رحمه الله- واحتج له بأن الله -عز وجل- عطف بعد ذكر الكتاب بالضياء فقال: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ}**، فهذا العطف يقتضي المغايرة، فالضياء: التوراة، والفرقان هو الحق الذي أظهره الله -عز وجل- على يد موسى -صلى الله عليه وسلم- وبه تبيّن بطلان ما عليه فرعون.

فإذا فسر الفرقان بالكتاب يكون قوله: **{وَضِيَاء وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ}** من أوصاف التوراة، والعطف يقتضي المغايرة، لكن هذا ليس دائماً، فأحياناً ينزل تغاير الأوصاف منزلة تغاير الذوات، فتأتي الأوصاف لموصوف واحد تارة بالعطف بالواو، وتارة من غير عطف، ومن أقرب الأمثلة قوله -تبارك وتعالى-: **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى}** [سورة الأعلى: (١-٢)] من غير عطف، ثم قال: **{وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى}** [سورة الأعلى: (٣-٤)] بذكر حرف العطف.

وعلى كل حال الآية تحتمل الأقوال كلها، وقد سمى الله –تبارك وتعالى- القرآن بالفرقان كما سمى التوراة فرقاناً، وقد قال الله تعالى: **{اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ}** [سورة آل عمران: (٢ - ٤)].

ثم وصفهم فقال: {الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ} **كقوله:** {مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ} [سورة ق: (٣٣)]، **وقوله:** {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [سورة الملك: (١٢)]، {وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ} [سورة الأنبياء (٤٩)]، **أي: خائفون وجلون.**

قوله: {الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ}، قال بعض أهل العلم في معنى الغيب، أي: يخشونه في حال غيبتهم عن الأنظار، فكما أنهم يراعون حقوق الله –عز وجل- وحدوده في حال الشهادة بمرأى من الناس، فكذلك هم يخافونه في حال خلوتهم، وهو أحد المعنيين في قوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} [سورة البقرة: (٣)]، وقال بعض أهل العلم: الله من الغيب والملائكة والجنة والنار، فالمؤمنون يؤمنون بهذا كله.

ثم قال تعالى: {وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ} [سورة الأنبياء: (٥٠)] **يعني: القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد** {أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ} **أي: أفتنكرونه وهو في غاية الجلاء والظهور؟.**

{وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ} [سورة الأنبياء: (٥١-٥٦)].

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم -عليه السلام- أنه آتاه رشده من قبل، أي من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه، كما قال تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} [سورة الأنعام: (٨٣)] **والمقصود ههنا أن الله تعالى أخبر أنه قد آتى إبراهيم رشده من قبل، أي من قبل ذلك.**

قال كثير من المفسرين: إن قوله: {مِن قَبْلُ} يعني: قبل النبوة، وإن تكسيره للأصنام وقع في صغره، وهو في السادسة عشرة من عمره، وقال بعضهم: في السادسة والعشرين، والقول بأن إبراهيم –عليه الصلاة والسلام– كسر الأصنام قبل النبوة هو قول عامة المفسرين.

وقال بعض أهل العلم إن الله –عز وجل- لما ذكر خبر موسى وهارون ذكر إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، فقال: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ} أي: قبل موسى وهارون، فإنه متقدم عليهما كما هو معلوم، وهذا الذي اختاره ابن جرير وابن القيم، ولعله أقرب؛ لأنه لا يوجد دليل يدل على أن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- كسر الأصنام وهو في الصغر.

وقوله: {وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ} **أي: وكان أهلا لذلك.**

قول ابن كثير في قول الله – تبارك وتعالى -: {وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ} "**أي: وكان أهلا لذلك**"، وقال البغوي: أهل للهداية والنبوة، وقول ابن كثير لا يقتضي هذا، ومعناه أن الله عالم به أنه أهل لإيتائه الرشد قبل النبوة.

وقال بعض أهل العلم: {وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ} يعني: أهل لإيتائه الرشد، وقال بعضهم: {وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ} أي: بأوصافه وأحواله وكمالاته، وما أعطاه الله -عز وجل- فهو أهل لما منحه الله -عز وجل- من النبوة، والخلّة، ولا شك أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هم أكمل قومهم، وقد اصطفاهم الله من بين سائر الناس، فقال –عز وجل-: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [سورة الحج:

(٧٥)] فالنبوة منحة إلهية، وفضل من الله -عز وجل- يوليه من شاء من عباده عن علم وبصر، {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ} [سورة القصص: (٦٨)]، خلافاً لقول الفلاسفة: إن النبوة تحصل بالعلم والعمل، يعني بالتهذيب والتزكية للنفس حتى يصل الإنسان إلى مرتبة عالية يستحق معها النبوة، وهذا لا شك أنه كفر، ولا يجوز، ولما قال الإمام ابن حبان -رحمه الله-: النبوة العلم والعمل، فقد كاد أن يقتل؛ لأنه فُهم منه أنه يقول بقول الفلاسفة وهو لا يقصد هذا.

ثم قال: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ} [سورة الأنبياء: (٥٢)] هذا هو الرشد الذي أوتيه من صغره، الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله -عز وجل-، فقال: {مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ} أي: معتكفون على عبادتها.

التماثيل معروفة، وهي ما يصنع من المصنوعات بالأحجار والأخشاب والمعادن وغير هذا مما يحاكى به صنع الله -عز وجل-، والوثن أعم من ذلك، سواء كان ممثّلاً أو كان شجرة أو قبراً أو حجراً.

قوله تعالى: {الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ} اللام في "لها"، للاختصاص على قول بعض أهل العلم، والتقدير "عاكفون لها"، وقدم الجار والمجرور للاختصاص.

وقال: {لَهَا عَاكِفُونَ} ولم يقل: عليها عاكفون؛ لأن كلمة عكف تتعدى بعلى، عكف على كذا.

و{عَاكِفُونَ} مضمن معنى عابدون.

قوله: {قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ} [سورة الأنبياء: (٥٣)]، **لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضُلّال، ولهذا قال: {قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [سورة الأنبياء: (٥٤)] أي: الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم، فلما سفه أحلامهم وضلل آباءهم واحتقر آلهتهم {قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ} [سورة الأنبياء(٥٥)]، يقولون: هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعباً أم محقاً فيه؟، فإنا لم نسمع به قبلك، {قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ} [سورة الأنبياء: (٥٦)] أي: ربكم الذي لا إله غيره، وهو الذي خلق السموات والأرض وما حوت من المخلوقات، الذي ابتدأ خلقهن، وهو الخالق لجميع الأشياء، {وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ} [سورة الأنبياء: (٥٦)]، أي: وأنا أشهد أنه لا إله غيره ولا رب سواه.**

مجادلة إبراهيم –عليه الصلاة والسلام– لقومه ودعوته لهم إلى توحيد الله، وتأييد الله –تبارك وتعالى– له بمعجزة عظيمة حيث أُلقي في النار ولم يحترق، كل ذلك يدل أن هذا حصل بعد النبوة، ولم يكن عمره ستة عشر عاما كما قال بعضهم، ويؤيد هذا قوله –تبارك وتعالى-: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [سورة العنكبوت(٢٦)].

قوله: {وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ *قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ} [سورة الأنبياء: (٥٧ -٦٣)].

ثم أقسم الخليل -عليه السلام- قسماً أسمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم، أي ليحرصن على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا مدبرين، أي إلى عيدهم.

وكان لهم عيد يخرجون إليه، وقال أبو إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مروا عليه، فقالوا: يا إبراهيم ألا تخرج معنا؟ قال: إني سقيم، وقد كان بالأمس قال: {وَتَاللّهِ لأكِيدَنّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلّواْ مُدْبِرِينَ} فسمعه ناس منهم.

قوله: {سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ} الذكر يفهم بحسب السياق، فتارة يكون الذكر بالخير وبالثناء، وتارة يكون بالسوء والعيب، وذكره لأصنامهم هو قوله: {وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم}.

وقد أجروا على آلهتهم ما يجرى على العقلاء من الضمائر، فقالوا: {يَذْكُرُهُمْ}.

وقوله: {بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ}، أي: على العيد، وبعضهم قال: تولوا مدبرين من عبادتها، فيَخلو المكان.

والمجادلة التي حصلت بين إبراهيم –عليه الصلاة والسلام– وبين قومه كانت قوية، أما من قبل فكان كلام إبراهيم –صلى الله عليه وسلم– في غاية اللطف والرفق.

فالرفق من الداعية يكون في مواطن، حيث ينفع الرفق ويُرجى القبول، وإلا فلا بأس من استعمال الشدة، ولهذا تلطف موسى -عليه الصلاة والسلام- مع فرعون، وأمره الله بهذا فقال: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [سورة طـــه(٤٤)]، ثم لما لم ينفع معه اللين ويئس منه، قال له: {وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا} [سورة الإسراء (١٠٢)].

وقوله: {فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً} أي: حطاماً كسرها كلها.

الجذاذ القطع والكسَر المحطمة، فقد تحولت الأصنام إلى قطع متناثرة.

{إلا كبيراً لهم} يعني: إلا الصنم الكبير عندهم، كما قال: {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ} [سورة الصافات: (٩٣)].

وقوله: {لَعَلّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ} ذكروا أنه وضع القدوم في يد كبيرهم لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها.

الضمير في قوله –تبارك وتعالى-: {لَعَلّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ} يرجع إلى كبير الأصنام، وقد وضع إبراهيم –صلى الله عليه وسلم– القدوم عند كبير الأصنام من أجل أن يبين لقومه أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر ولا تدفع عن نفسها، فيرجعون إلى كبير الأصنام فيسألونه عن سبب تكسير الأصنام.

وقال بعضهم: الضمير في قوله: {لَعَلّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ} يرجع إلى إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-.

وقال بعضهم: الضمير يرجع إلى الله، وهذا بعيد، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن الضمير يرجع إلى الصنم الكبير وهو أقرب مذكور.

قوله: {قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ} [سورة الأنبياء(٥٩)] **أي: حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدال على عدم إلهيتها وعلى سخافة عقول عابديها {قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ} أي: في صنيعه هذا، {قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ} [سورة الأنبياء (٦٠)] أي: قال من سمعه يحلف إنه ليكيدنهم: {سَمِعْنَا فَتًى} أي: شاباً، {يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ}.**

يستدل القائلون بأن إبراهيم –عليه الصلاة والسلام– ألقي في النار قبل النبوة -وكان صغيراً وقتها- بقوله تعالى: {سَمِعْنَا فَتًى}، وقالوا إن الفتى هو الشاب الصغير، ولكن هذا غير لازم؛ لأن العرب تعبر بالفتى عن الرجل المكتمل القوى، ومنه قول الشاعر:

في فتيةٍ من قريشٍ قال قائلُهم***ببطن مكةَ لمّا أسلموا زُولوا

وهذا كثير في كلام العرب، في شعرهم ونثرهم، ولهذا يقال أيضاً عن المملوك: إنه فتى، ومنه قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: (ولا يقل أحدكم: عبدي أمتِي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي)[٣].

والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((يجري هلاك هذه الأمة على يديْ أغيلمة من قريش))[٤]، وليس المقصود بالأغيلمة أنهم صبيان صغار، بل رجال كبار، ولكن قيل ذلك تحقيراً لهم، وأكثر أهل العلم على أن المقصود بهذا "يزيد" وغيره، ولهذا كان أبو هريرة -رضي الله تعالى عنه- يستعيذ بالله من أن يدرك سنة ستين، فمات سنة ثمان وخمسين وقيل: تسع وخمسين.

وقوله: {قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِ عَلَىَ أَعْيُنِ النَّاسِ} أي: على رءوس الأشهاد في الملأ الأكبر بحضرة الناس كلهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم -عليه السلام- أن يبيّن في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام. التي لا تدفع عن نفسها ضراً، ولا تملك لها نصراً، فكيف يُطلب منها شيء من ذلك؟.

قوله –تبارك وتعالى-: {قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِ عَلَىَ أَعْيُنِ النَّاسِ} أي: على مرأى منهم، وعلى رءوس الأشهاد.

قوله: {لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ}، قال بعض أهل العلم: لعلهم يشهدون عقوبته، فيكون ذلك رادعاً لكل من تسول له نفسه أن يفعل فعله.

وقال بعضهم: {لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ} أي: يشهدون عليه بأنه الذي كسر الأصنام، وقال بعضهم: {لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ} أي: يشهدون عليه بأنه ذكرها، والآية تحتمل كل المعاني المذكورة.

قوله: **{قَالُواْ أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا} يعني: الذي تركه لم يكسره {فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يِنْطِقُونَ}، وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم؛ لأنه جماد.**

لما جعل الكفار آلهتهم بمنزلة العقلاء، قال لهم إبراهيم –عليه الصلاة والسلام- {فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يِنْطِقُونَ} من باب المجاراة لهم، والمخاطبة للسامع بحسب اعتقاده، ومن المفترض أن يقول لهم: "فاسألوها إن كانت تنطق"، فهذا يقال لغير العقلاء.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن إبراهيم -عليه السلام- لم يكذب غير ثلاث: ثنتين في ذات الله: قوله: {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا}، وقوله: {إِنِّي سَقِيمٌ} [سورة الصافات: (٨٩)]، قال: ((وبينا هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة، إذ نزل منزلاً

---

[٣] - رواه البخاري، كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله عبدي وأمتي (٢ / ٩٠١)، برقم (٢٤١٤)، ومسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد (٤ / ١٧٦٤)، برقم: (٢٢٤٩).

[٤] - رواه أحمد (١٦ / ٤٣١)، برقم (١٠٧٣٧)، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، وحسنه محققو المسند.

فأتى الجبارَ رجلٌ فقال: إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاء، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: أختي. قال: فاذهب فأرسل بها إليّ، فانطلق إلى سارة فقال: إن هذا الجبار قد سألني عنك، فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي، فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها فتناولها فأُخذ أخذاً شديداً، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت له، فأُرسل فأهوى إليها، فتناولها فأُخذ بمثلها أو أشد، ففعل ذلك الثالثة، فأُخذ فذكر مثل المرتين الأوليين، فقال: ادعي الله فلا أضرك، فدعت له فأرسل، ثم دعا أدنى حجابه فقال: إنك لم تأتني بإنسان، ولكنك أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر. فأخرجت وأعطيت هاجر فأقبلت، فلما أحس إبراهيم بمجيئها، انفتل من صلاته، وقال: مَهْيَم؟ قالت: كفى الله كيد الكافر الفاجر وأخدمني هاجر))[٥].

قال محمد بن سيرين: فكان أبو هريرة -رضي الله تعالى عنه- إذا حدث بهذا الحديث قال: تلك أمكم يا بني ماء السماء.

يا بني ماء السماء، قال بعضهم: يعني العرب؛ لخلوص نسبهم وصفائه، وقال بعضهم: المراد بذلك العرب؛ لأنهم أهل مواشٍ فيتبعون القطر فترعى دوابهم مما تنبته الأرض ، فقيل لهم ذلك، وقال بعضهم: قصد بذلك الأنصار نسبة إلى جدهم عامر بن حارثة، فالأوس والخزرج جميعاً يرجعون إلى عامر بن حارثة، وكان يلقب بماء السماء.

قوله: {فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [سورة الأنبياء: (٦٤-٦٧)].

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم -عليه السلام- حين قال لهم ما قال: {فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ} أي: بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم، فقالوا: {إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّٰلِمُونَ} أي: في تركهم لها مهملة لا حافظ عندها، {ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ}.

قول العلامة ابن كثير –رحمه الله– في معنى قوله –تبارك وتعالى-: {فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ} "أي: **بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم**" محتمل، ويحتمل معنى آخر ولعله الأقرب -والله أعلم- أن "الفاء" تدل على التعليل وترتيب ما بعدها على ما قبلها {قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ} أي: أدركوا أن هذه لا تنفع ولا تضر ولا تصرف عن نفسها، ولا تدفع، فكيف تصلح للعبادة؟، فأفاقوا، وحصل مقصود إبراهيم –عليه الصلاة والسلام- لما ترك الكبير، فأدرك الكفار الخطأ الذي وقعوا فيه، من عبادة هذه الأصنام، {فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ} فيكون هذا مرتباً على ما قبله.

قوله: {فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ} يعني: مخطئون، وكل من وضع شيئاً في غير موضعه فقد ظلم.

---

[٥] - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلا) (٣ / ١٢٢٥)، برقم: (٣١٧٩)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل -صلى الله عليه وسلم- (٤ / ١٨٤٠)، برقم (٢٣٧١).

قوله: {ثُمّ نُكِسُواْ عَلَىَ رُءُوسِهِمْ} أي: ثم أطرقوا في الأرض، فقالوا: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤلاء يَنطِقُونَ}، قال قتادة: أدركت القومَ حيرةُ سوء، فقالوا: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤلاء يَنطِقُونَ}، ولهذا قالوا له: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤلاء يَنطِقُونَ} فكيف تقول لنا سلوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لا تنطق؟، فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك: {أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرّكُمْ} أي: إذا كانت لا تنطق وهي لا تنفع ولا تضر، فلم تعبدونها من دون الله؟ {أُفّ لّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} أي: أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر؟، فأقام عليهم الحجة وألزمهم بها؛ ولهذا قال تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} [سورة الأنعام: (٨٣)] **الآية.**

قوله: {ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ}، القول بأن معنى هذه الآية: ثم أطرقوا في الأرض، أي نَكّسوا رءوسهم متفكرين فيه بعد والله أعلم؛ لأنه لو كان هذا هو المراد لقال: ثم نَكَّسوا رءوسهم، أو نَكَسوا رءوسهم، لكنه قال: {ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ} وهذا يعبر به عمن رجع إلى غيه، وكابر، وعاند، ولم يقف عند دلائل الحق، فرجع إلى جهالته، فشبه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه، فتحولوا هذا التحول وانقلبوا، رجعوا بعدما حصلت لهم الإفاقة، وكابروا وعاندوا ورجعوا إلى جهلهم، فأرادوا أن ينتصروا لهذه الآلهة، {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ}.